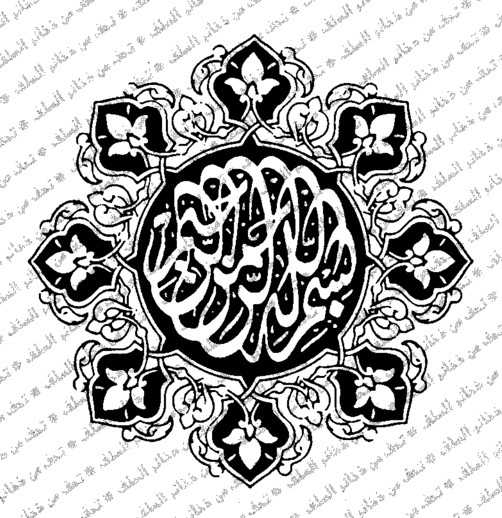
تحف من ذخائر السلف

عبد الكريم بن صالح الحميد

الـــرقـــم : RD/13-92/10100120
اسم الكتاب : تحف من ذخائر السلف
المؤلـــــف : حميد ـ عبدالكريم بن صالح آل
الناشـــر : مكتبة دار الحميضي (الرياض)
دار الكتاب والسنة (باكستان)
إشـــراف : دار الحميضي للنشر (الرياض)
المشرف الفني : مغل ـ أبو سلطان
المطبعـــة : مطبعة سفير (الرياض)
الطبعـــة : الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م
المقـــاس : ١٧ × ٢٤ سم
المـــوزع : مؤسسة الجريسي للتوزيع

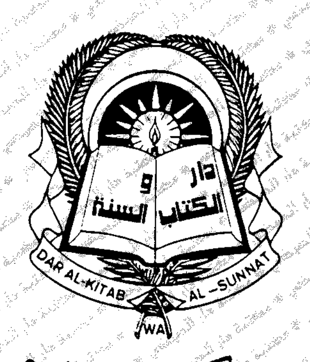


تحف من
ذخائر السلف

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



مكتبة دار الحميضي
ص.ب ٣١٠٦ الرياض ١١٤٧١
هاتف ٤٣٥٣٨٢٢ فاكس ٤٣٥٧٨٠٢



دار الكتاب والسنة
P.O. Box 11106 Karachi 75300
Pakistan



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فهذه مجموعة من الفوائد استخرجتها من مؤلفات علمائنا ـ رحمة الله عليهم ـ في مواضيع شتى من تأملها عرف بعض ما كان عليه السلف من الفقه، والفهم في الدين، والنصح للمسلمين، وأننا لو اكتفينا بما ورّثوه لنا لما احتجنا إلى غيره لاسيما ما يتكلفه كثير من المتأخرين من حَشْوٍ لو استصفيته لوجدت قليل الحق الذي فيه في كتب السلف ما هو خير منه، وأطيب، وأوفى بالمقصود، وأما شوائب الباطل التي امتزجت به، فلا ينجو من عدواها، ويسلم من غوائلها إلا من كتب الله له السلامة، وقليل ما هم.

وهذه الفوائد لم أنتخبها في يوم وليلة، وإنما هي نتيجة ما استحصلت عليه، واستخرجته من مطالعاتي في مدة طويلة، وما كنت أنقلها من بطون الكتب لأدونها في كتاب، وإنما لأستفيد منها، وأنتفع بها، فقدّر الله أخيراً أن أجمع بعضها من الأوراق والدفاتر لتكون بين يدي من أرجو أن ينفعه الله بها من المسلمين، وقد علقت بعض التعليقات القليلة على بعضها ليس لحاجتها إلى تكلفاتنا وإنما إشارات تعين على المقصود إن شاء الله.



الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن أولياء الرحمن ﴿**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. هم ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرام والحلال الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون، ولا يدعـون إلى بدعـة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً.

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنَّى يكون المعرضون عن كتابه وهدي رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه، وقد ضربوا لمخالفته جأشاً، وعدلوا عن هدي نبيه وطريقته. ﴿**وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾.

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنـه، وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً يدعون إليه، ويحاربون من نهاهم عنه.

فإذا رأيت الـرجـل يحب السماع الشيطاني، ومؤذن الشيطان، وإخوان الشياطين، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أوليائه. فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبته للسنّة، وأهلها، ونفرته عنهم، ودعوته إلى الله ورسوله، وتجريد التوحيد، والمتابعة، وتحكيم السُّنة، فزنه بذلك لا تزنه بحال، ولا كشف، ولا خارق، ولو مشى على الماء، وطار في الهواء.

* * *

التفكر

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة، والطلب في الزهد، والترك، والحب، والبغض، وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار ويليها أربعة. فكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا، وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء، ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله، ونعمه، وأمره، ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه وصفاته من كتابه وسُّنة نبيه، وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة، وشرفها، ودوامها، وفي الدنيا، وخستها، وفنائها أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل، وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في واد، والناس في واد.

وبإزاء هذه الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق: كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه، ولا أُعطي الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع: كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه.

ومنها الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج، والموسيقى، وأنواع الأشكال، والتصاوير، ومنها الفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالاً ولا شرفاً: كالفكر في دقائق المنطق، والعلم الرياضي، والطبيعي، وأكثر علوم الفلاسفة التي لو بلغ الإنسان غاياتها لم يكمل بذلك، ولم يزك نفسه، ومنها الفكر في الشهوات، واللذات، وطرق تحصيلها وهذا وإن كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له، ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته، ومنها

الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون كالفكر فيما إذا صار ملكاً أو وجد كنزاً أو ملك ضيعة ماذا يصنع؟ وكيف يتصرف ويأخذ ويعطي وينتقم؟ ونحو ذلك من أفكار السفل، ومنها الفكر في جزئيات أحوال الناس ومجراياتهم، ومداخلهم، ومخارجهم، وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة، ومنها الفكر في دقائق الحيل والمكر التي يتوصل بها إلى أغراضه وهواه مباحة كانت أو محرمة، ومنها الفكر في أنواع الشعر، وصروفه، وأفانينه في المدح، والهجاء، والغزل، والمراثي، ونحوها، فإنه يشغل الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة، ومنها الفكر في المقدرات الذهنية التي لا وجود لها في الخارج ولا بالناس حاجة إليها البتة وذلك موجود في كل علم حتى في علم الفقه، والأصول، والطب، فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها، ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى به ويعود عليه بالنفع عاجلاً وآجلاً.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وقد ذكر خلاف العلماء في الترتيل أو الإدراج أيها أفضل، الترتيل مع التدبر أو الإدراج مع كثرة القراءة؟ فقال ـ رحمه الله ـ:

والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل، وأرفع قدراً. وثواب كثرة القراءة أكثر عدداً. فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً. والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة.

وقد قال بعض السلف: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنّة وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمعه في بادية التفكر، وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقال الفضيل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة فقال: الفكرة مخ العقل، وكان سفيان كثيراً ما يتمثل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وقال الحسن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ قال: منعهم التفكر منها، وقال بعض العارفين: لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش، ولم تقر لهم فيها عين، وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة. وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.

وقال عبدالله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط. وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة تورث الحكمة وتحلي القلوب.

وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به.

وقال الحسن: إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة. ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة. وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح، وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان مالا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب، ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة، فيشتغل به دون الأول فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم

من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها بل بحرها الذي لا تنفك سابحة فيه، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة، وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة، وكذلك إذا فكر في عواقب الأمور، وتجاوز فكره مبايها وضعها مواضعها وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكره لذته، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه. وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة، والدعة، والكسل، والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام التي في مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها وكلما غاص فكره في ذلك أشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاط، وقوة، وعزيمة، وكذلك إذا فكر في منتهى ما يستعبده من المال، والجاه، والصور، ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره استحى من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك. كما قيل:

لو فكر العاشق في منتهىٰ حسن الذي يسبيه له يسبه

وكذلك إذا فكر في آخر الأطعمة المفتخرة التي تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام، وما يصير أمرها إليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها إلى الاعتناء بها، وجعلها معبود قلبه ا لذي إليه يتوجه، وله يرضى، ويغضب، ويسعى، ويكدح، ويوالي، ويعادي كما جاء في المسند عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «**إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وإن قزحه وملحه فإنه يعلم إلى ما يصير**» أو كما قال ـ ﷺ ـ: فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره وكانت نفسه حرة أبية ربأبها أن يجعلها عبداً لما آخره أنتن شيء وأخبثه وأفحشه».

فصل: إذا عرف هذا فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، ومثال ذلك إذا أحضر في قلبه العاجلة، وعيشها، ونعيمها، وما يقترن به من الآفات، وانقطاعه، وزواله ثم أحضر في قلبه الآخرة، ونعيمها، ولذته، ودوامه، وفضله على نعيم الدنيا، وجزم بهذين العلمين

أثمر له ذلك علماً ثالثاً، وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقـل بإيثـاره من العـاجلة المنقـطعة المنغصة ثم له في معرفة الآخرة حالتان:

إحداهما أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به، ولم يفض قلبـه إلى مكافحة حقيقة الآخرة، وهذا حال أكثر الناس، فيتجاذبه داعيان أحدهما: داعي العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده لأنه مشاهد له محسوس، وداعي الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبـه اليقين به، ولا كافح حقيقته العلمية، فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم، فلسان الحال ينادي عليه لا أدع ذرة منقودة لدرة موعودة وهذه الآفة هي التي منعت النفـوس من الاستعداد للآخرة، وأن يسعى لها سعيها، وهذا من ضعف العلم بها وتيقنها، وإلا فمع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها، ولهذا لو قدم لرجل طعام في غاية الطيب، واللذة، وهو شديد الحاجة إليه، ثم قيل له: إنه مسموم، فإنه لا يقدم عليه لعلمه بأن سوء ما تجني عاقبة تناوله تربو في المضرة على لذة أكله، فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة! ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب، وعدم استقرارها فيه، وكذلك إذا كان سائراً في طريق فقيل له: إن به قطاعـاً ولصوصاً يقتلون من وجدوه، ويأخذون متاعه، فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين: إما أن لا يصدق المخبر، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم، وقهرهم، والإنتصار عليهم، وإلا فمع تصديقه للخـبر تصـديقـاً لا يتـمارى فيه، وعلمـه من نفسه بضعفه، وعجزه عن مقاومتهم، فإنه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك، فعُلم أن إيثاره للعاجلة، وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبداً.

الحالة الثانية: أن يتيقن ويجزم جزماً لا شك فيه بأن له داراً غير هذه الدار، ومعاداً له خُلق، وأن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد، ومنزل من منازل السائرين إليه، ويعلم مع ذلك أنها باقية، ونعيمها، وعذابها لا يزول، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم، ثم ينزعها، فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة، فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة، وطلبها، والاستعداد التام لها، وأن يسعى لها سعيها.

فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكارة إلى المحاب، ومن الرغبة، والحرص إلى الزهد، والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة، والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله، والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى، والصمم، والبكم إلى نعمة البصر، والسمع، والفهم عن الله، والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين، وثلج الصدور.

وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة، فيبذر فيها حب الأفكار الردية، فيتولد منه الإرادات والعزوم، فيتولد منها العمل، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له، وفيما أمر به، وفيما هيء له، وأعد له من النعيم المقيم، أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعاً، وهذا كما قيل:

أتاني هواها قبل أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

* * *

الاحتجاب بالعلم عن المعلوم

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله، وما يقرب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم. كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي لما قال له: أخلصت أربعين صباحاً، فلم يتفجر لي شيء، فقال: يا بني أنت أخلصت للحكمة لم يكن الله هو مرادك . .

والإخلاص لله هو أن يكون الله هو مقصود المرء، ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، كما في حديث مكحول عن النبي ـ ﷺ ـ: «من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». انتهى ص ١٤٧ النبوات.

فيه من الفوائد:

١ ـ أن السعادة هي العلم بالله، وما يقرب إليه.

٢ ـ أن السعادة هي أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود.

٣ ـ أن العلم إذا لم تَخْلُص فيه النية ـ وذلك بأن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود ـ فإنه يكون حجاباً عن المعلوم وهو الحق ـ سبحانه ـ.

تأمل كيف يكون العلم إذا أريد به الدنيا والرئاسة، ونحو ذلك؟ كيف يكون حجاباً عن الله لأن العلم وسيلة، فهو كالطريق الموصلة إلى بلد معين. فالمخلص السائر إلى الله مثل من سلك هذه الطريق وجَدَّ في سيره، فهو يصل وإن صادفته بعض العوائق والعثرات التي لا تقطعه عن مواصلة السير بالكلية، فهو كالجواد إذا كبا نهض، وأسرع. ومثل المحتجب بالعلم عن المعلوم مثل من هو على طريق البلد المقصودة لكنه يدور في الطريق، وإذا تقدم خطوة رجع خطوتين، وجلس، فكيف يصل هذا؟ ومتى يصل؟ لأنه استخدم الوسيلة لغير غايتها، فاحذر من الاغترار بأن تظن أن العلم

مقصود لذاته، فتطمئن إليه، وتركن إليه، فتحجبك الوسيلة عن الغاية، وتذكر حديث «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» .

معنى الحـديث أنك إذا طلبت العلم للدنيا والرئاسة كنت كمثل من أدخل غنماً في زريبة، ثم أدخل عليها ذئبين جائعين.

تأمل كيف يكون إفسادها للغنم. فالغنم هي علمك النافع، وأعمالك الصالحة، والذئبان هما القصود والنيات، التي تفسد ذلك، وما يتفرع منها من الأعمال.

قال شيخ الإسلام: والحب والإرادة ونحو ذلك يتبع العلم.

المنهاج ج ٢ ص ٢٣٠

قال ابن القيم: فإن محبة الشيء فرع عن الشعور، به، وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له، فكل من عرف الله أحبه، ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم، والعلم يفتح هذا الباب العظيم.

مفتاح دار السعادة ص ٨٧ ج ١

وقـال: والحب تابع للعلم بالمحبوب، ومعرفة جماله الظاهر والباطن، فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته، وذلك بحسب العلم به، وبصفات كماله. فإذاً العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات.

مفتاح دار السعادة

ولـو أن أهل العلم صانوه صانهم ولـو عظمـوه في النفـوس لعُـظِّما
ولكن أهـانـوه فهـانَ ودنّسـوا محيّاه بالأطـماع حتـى تجهَّـما

*　*　*

تلاعب الشياطين بالناس

قال شيخ الإسلام: ومنهم من يرى عرشاً في الهواء، وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه، ويقول: أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان، فزجره، واستعاذ بالله منه، فيزول.

الفتاوى جـ ١١ ص ٢٨٩

كان بعض طلاب العلم يحضر مجلس شيخه ثم انقطع، فسأل الشيخ عنه، فقالوا له: هو في عافية، فأرسل خلفه، فحضر، فسأله ما الموجب لانقطاعك؟ فقال: يا سيدي كنت أجيء لكي أصل، والآن وصلت، فلا حاجة تدعو إلى الحضور. فسأله عن كيفية وصوله، فأخبره أنه في كل ليلة يصلي ورده في الجنة. فقال له الشيخ: يا بني والله ما دخلتها أبداً، فلعلك أن تتفضل علي فتأخذني معك لعلي أن أدخلها كما دخلتها أنت. قال: نعم، فبات الشيخ عند التلميذ، فلما أن كان بعد العشاء جاء طائر فنزل عند الباب، فقال التلميذ للشيخ: هذا الطائر الذي يحملني في كل ليلة على ظهره إلى الجنة، فركب الشيخ والتلميذ على ظهر الطائر، فطار بهما ساعة، ثم نزل بهما في موضع كثير الشجر، فقام التلميذ يصلي، والشيخ قاعد، فلما أن طلع الفجر جاء الطائر يضرب بأجنحته، ويصيح حتى أراهم أن الأرض تتحرك بهم، فبقي المريد يقول للشيخ: قم بنا لئلا يجري علينا منه شيء. فقال له الشيخ: هذا يضحك عليك يريد أن يخرجك من الجنة، فاستفتح الشيخ يقرأ القرآن، فذهب الطائر، وبقيا كذلك إلى أن تبين الضوء، وإذا هما على مزبلة والعذرة والنجاسات حولها، فصفع الشيخ التلميذ، وقال له: هذه هي الجنة التي أوصلك الشيطان إليها، قم فاحضر مع إخوانك.

إذا كان هذا يحصل لمن يسلك الطريق إلى الله، ويتعلم العلم الشرعي ليصل، فكيف بحال من لا يقرون بوجود الله ولا بوجود الشياطين؟! ومع هذا يقولون: وصلنا كذا، ووصلنا كذا، ويصدقون.

الغناء

بين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح، والزنا أكبر لذات النفس، ولهذا ورد أن الغناء رقية الزنا.

كان سليمان بن عبدالملك في بادية له فسمر ليلة على ظهر سطح، ثم تفرق عنه جلساؤه، فدعىٰ بوضوء، فجاءت به جارية له، فبينما هي تصب عليه إذ استمدها بيده، وأشار إليها، فإذا هي ساهية مصغية بسمعها مائلة بجسدها كله إلى صوت غناء تسمعه في ناحية العسكر، فأمرها فتنحت واستمع هو الصوت فإذا صوت رجل يغني، فأنصت له حتى فهمَ ما يغني به من الشعر، ثم دعا جارية من جواريه غيرها، فتوضأ فلما أَصبح أذن للناس إذناً عاماً، فلما أخذوا مجالسهم أجرى ذكر الغناء ومن كان يسمعه ولَيَّنَ فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه، فأفاضوا في التليين، والتحليل، والتسهيل. فقال: هل بقي أحد يُسمع منه؟ فقام رجل من القوم فقال: يا أمير المؤمنين عندي رجلان من أهل أيْلة حاذقان، قال: وأين منزلك من العسكر؟ فأومى إلى الناحية التي كان الغناء منها، فقال سليمان: يُبعث إليهما، فوجد الرسول أحدهما، فأقبل به حتى أدخله على سليمان، فقال له: ما اسمك؟ قال: سمير. فسأله عن الغناء كيف هو فيه؟ فقال: حاذق محكم. قال: ومتى عهدك به؟ قال: في ليلتي هذه الماضية، قال: وفي أي نواحي العسكر كنت؟ فذكر له الناحية التي سمع منها الصوت، قال فما غنيت؟

فذكر الشعر الذي سمعه سليمان، فأقبل سليمان فقال: هَدَرَ الجمل فضنعت الناقة، وهبَّ التيس فشكرت الشاة، وهَدَل الحمام فزافت الحمامة، وغنى الرجل فطربت المرأة، ثم أمر به فخصي، وسأل عن الغناء أين أصله وأكثر ما يكون؟ قالوا: بالمدينة وهو في المخنثين وهم الحذاق فيه، والأئمة فيه، فكتب إلى عامله على المدينة وهو أبوبكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن إخْص مَنْ قِبَلَكَ من المخنثين المغنين.

كيفية صفات الباري ممتنعة في النقل والعقل

قال ابن عباس لرجل: أي شيء هذا؟ فأخبره.
ثم أراه شيئاً أبعد منه، فقال: أي شيء هذا؟
قال: انقطع الطرف دونه. قال: فكما جُعل لطرفك حَدٌّ ينتهي إليه كذلك جُعل لعقلك حَدٌّ ينتهي إليه انتهى.

فيه من الفائدة أنه كما أن بصرك محدود بنهاية يعجز عن مجاوزتها وتعدِّيها فكذلك عقلك له حدٌّ ينتهي إليه لا يتجاوزه، فكيف تطلب مالا تستطيعه من كيفية صفات من **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**؟!.

ولذلك يقول بعض المشايخ: إذا رأى العبد ربه في صورة كانت تلك الصورة حجاباً بينه وبين الله، ويقال: كلما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

قال عثمان بن سعيد الدارمي ـ رحمه الله ـ في قوله ـ تعالى ـ: **﴿ليس كمثله شيء﴾** قال: معناه هو أحسن الأشياء وأجملها. وقالت الجهمية ليس هناك شيء.

قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: **﴿ليس كمثله شيء﴾** إنما سيق لإثبات الصفات وعظمتها لا لنفيها.

قال شيخ الإسلام: الاستواء معلوم والكيف مجهول، فبيّن أن كيفية استوائه مجهولة للعباد، فلم ينفوا ثبوت ذلك في نفس الأمر، ولكن نفوا علم الخلق به.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وأما قوله: قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن. فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع، ولا مماس لها، ولا أنها في جوفه، ولا في قول القائل: هذا بين يدي ما يقتضي مباشرته ليديه.

وإذا قيل: السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماساً للسماء والأرض ونظائر هذا كثيرة. الفتاوى جـ ٣ ص ٤٥

قال ابن القيم: الصنف الخامس أصحاب سواء السبيل فأثبتوا حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات.. ثم قال: وقد أخبرنا ـ سبحانه ـ عن تفاصيل يوم القيامة، وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان، وشاهدته عقولهم، ولم يعرفوا كنهه. فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهاراً من خمر، وأنهاراً من عسل، وأنهاراً من لبن، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من دود القز. وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلاً لما في الدنيا.

كما قال ابن عباس: «**ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء والصفات**» ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك، فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها. وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله ـ تعالى ـ لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن أحدها قوله ـ تعالى ـ: ﴿**للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾. الثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾. فنفى ـ سبحانه وتعالى ـ المِثْل عن هذا المَثَلْ الأعلى وهو ما في قلوب أهل سمواته وأرضه من معرفته، والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته، فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية المضبوطة بالبراهين العقلية فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة.

فإذا قال المثبت: يا الله! قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه مستوي على عرشه مُكلِّم متكلم سامع قدير مريد فعال لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السائلين، ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات،

وتغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده، وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى فعد قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد فإذا نسبت قوتهم إلى قوة الرب ـ تعالى ـ لم تجد نسبة إليها البتة كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد. وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لواحد ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلى علمه ـ تعالى ـ كنقرة عصفور في بحر، وكذا في حكمته وكماله.

وقال في موضع آخر: من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب بالجمال وهي معرفة خواص الخلق. ثم قال: ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ونسب جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب ـ سبحانه ـ لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، ثم قال: ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**». ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره، ومن أسمائه الحسنى الجميل وفي الصحيح عنه ـ ﷺ ـ: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

ثم قال بعد أن ذكر نسبة علومهم إلى علمه: وقد نبهنا ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿**ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم**﴾. فلو قدر البحر المحيط بالعالم مداداً ووراءه سبعة أبحر تحيط به كلها مداداً يكتب به كلمات الله لنفدت البحار ونفدت الأقلام التي قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ولم تنفد كلمات الله وقد أخبر النبي ـ ﷺ ـ: «**أن السموات السبع في الكرسي كحلقه ملقاة بأرض فلاة والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة والعرش لا يقدر قدره إلا الله**». وهو ـ سبحانه ـ فوق عرشه يعلم ويرى ما عباده عليه، فهذا هو الذي قام بقلوب

المؤمنين المصدقين العارفين به ـ سبحانه ـ المثل الأعلى. فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبوه، وخافوه، ورجوه، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك معنى استوائه على عرشه وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله إذ قد أحاط علمهم بأنه لا نظير لذلك، ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين، وقد أعلمهم الله ـ سبحانه ـ على لسان رسوله «**أنه يقبض سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن**»، و«أن السموات السبع والأرضيين السبع في كفه كخردلة في كف أحدكم» «وأنه يضع السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر المخلوقات على أصبع فأي يد للخلق وأي أصبع تشبه هذه اليد وهذه الأصبع حتى يكون إثباتها تشبيها وتمثيلاً. فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل ماذا حرموه من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان ونخالة الأفكار وماأشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى بلا تعب، فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل، وقد جرت عادة الله ـ سبحانه ـ أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى، ويجعله عبرة للعقلاء، فأول هذا الصنف إبليس لعنه الله ترك السجود لآدم كبراً فابتلاه الله ـ تعالى ـ بالقيادة لفساق ذريته، وعباد الأصنام لم يقروا بنبي من البشر، ورضوا بآلهة من الحجر، والجهمية نزهوا الله عن عرشه لئلا يحويه مكان، ثم قالوا: هو في الآبار والأنجاس، وفي كل مكان، وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين وورثة الصائبين وأفراخ الفلاسفة الملحدين ص ٨٤ الصواعق المرسلة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: بل هو ـ سبحانه وتعالى ـ متميز بنفسه المقدسة بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته، وبذلك جاءت الكتب الأربعة الإلهية من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وعليه فطر الله ـ تعالى ـ عباده، وعلى ذلك دلت العقول ص ٤٧٥ ج ٢ الفتاوى.

وقال شيخ الإسلام: في سياق ذكره لمذهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود قال: وأصل ضلال هؤلاء إنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته، وعلوه عليها، وعلموا أنه موجود، فظنوا أن وجوده لا يخرج عن وجودها بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أنه الشمس نفسها ص **٢٩٧** فتاوى ج **٢**.

قال ابن القيم رحمه الله: وأما الرسل وأتباعهم فإنهم قالوا: إن الله حي وله حياة، وليس كمثله شيء في حياته، وهو قوي وله القوة، وليس كمثله شيء في قوته: ﴿**وهو السميع البصير**﴾ يسمع ويبصر، وليس كمثله شيء في سمعه وبصره، ومتكلم، وله يدان، ومستو على عرشه، وليس له في هذه الصفات مثل. فهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له، وثناء أثنى به على نفسه. والعدم المحض لا يمدح به أحد ولا يكون كمالاً له، بل هو أنقص النقص، وإنما يكون كمالاً إذا تضمن الإثبات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾. لكمال حياته وقيوميته، وقوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عند إلا بإذنه**﴾. لكمال غناه وعدله ورحمته، وقوله: ﴿**وما مسنا من لغوب**﴾ لكمال قدرته، وقوله: ﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء**﴾ لكمال علمه، وقوله: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ لعظمته وإحاطته بما سواه، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه واسع، فيرى، ولكن لا يحاط به إدراكاً، كما يُعلم ولا يحاط به علماً، فيرُى ولا يحاط رؤية، وهكذا «**ليس كمثله شيء**» هو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإجمال، وهذا هو المعقول في نظر الناس، فإذا قالوا: فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس، أو ما له شبيه، ولا من يكافيه، فإنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد بما لا يلحقه فيه غيره، فصار واحداً في الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده لكان ذلك عندهم غاية الذم والنقص له، فإذا أطلقوا ذلك في سياق المدح والثناء لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه التي لها حقائق تحمل عليها، فهل يقول عاقل لمن لا قدرة له، ولا

علم، ولا بصر، ولا يتصرف بنفسه، ولا يفعل شيئاً، ولا يتكلم، ولا له وجه، ولا يد، ولا قوة، ولا فضيلة من الفضائل أنه لا شبه له، ولا مثل له، وأنه وحيد دهره، وفريد عصره، ونسيج وحده، وهل فطر الله الأمم وأطلق ألسنتهم إلا على ضد ذلك؟ وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، وأفعاله، وأسمائه الحسنى؟ وإلا فبماذا يثني عليه المثنون ولأي شيء يقول أعرف الخلق به «**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

وقال في موضع آخر: فإذا كانت سبحات وجهه الأعلى لا يقوم لها شيء من خلقه، ولو كشف حجاب النور عن تلك السبحات لأحرق العالم العلوي والسفلي فما الظن بجلال ذلك الوجه الكريم، وعظمته، وكبريائه، وكماله، وجماله؟ وإذا كانت السموات مع سعتها، وعظمتها يجعلها على إصبع من أصابعه والأرض على إصبع، والبحار على إصبع، والجبال على إصبع، فما الظن باليد الكريمة التي هي صفة من صفات ذاته؟.

* * *

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ابن عقيل في الفنون: من أعظم منافع الإسلام، وآكد قواعد الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح، فهذا أشق ما تحمَّله المكلف لأنه مقام الرسل حيث يثقل صاحبه على الطباع وتنفر منه نفوس أهل اللذات ويمقته أهل الخلاعة، وهو إحياء السنن، وإماتة البدع. إلى أن قال: لو سكت المحقون، ونطق المبطلون لتعوّد النشوء على ما شاهدوا وأنكروا ما لم يشاهدوا، فمتى رام المتديِّن إحياء سنة أنكرها الناس، وظنوها بدعة، وقدْ رأينا ذلك.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين**﴾. قال: وكيف عفا عنهم، وقد قُتل منهم سبعون، وقُتل عم رسول الله ـ ﷺ ـ وكسرت رباعيته، وشج في وجهه، ثم يقول: الله عز وجل: قد عفوت عنكم إذ عصيتموني أن لا أكون استأصلتكم. هؤلاء مع رسول الله ـ ﷺ ـ، وفي سبيل الله غضاب لله، يقاتلون أعداء الله نُهوا عن شيء فصنعوه، فوالله ما تُركوا حتى غُمُّوا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يتجرأ على كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه، فسوف يعلم.

قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم.

قال بعض أهل العلم: وانظر إلى قوله ـ تعالى ـ عن وصية لقمان لابنه ﴿**وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك**﴾ تعلم أن الآمر والناهي لابد وأن يجعل له من الصبر حصناً حصيناً، ومن الاحتمال خِلاًّ أميناً، وأن يوطن نفسه على تجرع كؤوس المرارات، وتجنب حلاوة المداهنة والمداراة، وأن يُمرّن نفسه على هجر الخلق في جنب الله. ويقنع في كل

أحواله بنظر الله، وألا يأسف على من قلاه لذلك، ولا يحزن على من فارقه وخذله في هذه المهالك، وليقطع أطماعه من الخلق، ويثق بكفالة الحق، ويتوكل على الله فهو حسب من توكل عليه، ويفوض إليه في جميع أحواله، فمرجع الأمور كلها إليه.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره، وقد يحتاج إلى الحجج المبنية لذلك، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها من الحجج، وإلى دفع أهوائهم وإراداتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة، وقدرة على ذلك، وذلك لا يكون إلا بالصبر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾. وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها، والنهي عنها، وبيان ما فيها من الفساد، فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد، وهذه طريقة القرآن فيما يذكره ـ تعالى ـ عن الكفار والفساق والعصاة من أقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها، وبيان فسادها، والتحذير منها كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح، والحب، وبيان صلاحه، ومنفعته، والترغيب فيه، وذلك نحو قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وقالوا اتخذا ا لرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون**﴾ ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّا تكاد السموات يتفطر ن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً. إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عدّا، وكلهم آتينه يوم القيامة فردا**﴾.

﴿**وقالت اليهود عزير ابن الله**﴾ الآيات، وهذا كثير جداً في جـ ١٥ ص ٣٣٨.

إعقل قوله: وهذه طريقة القرآن فيما يذكره ـ تعالى ـ عن الكفار والفساق والعصاة من أقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها

وبيان فسادها والتحذير منها.

كتب عمر بن عبدالعزيز إلى بعض عماله، أما بعد: فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط، ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده، أو بأيدي من يشاء من عباده، ولايزال الناس معصومين من العقوبات، والنقمات ما قُمع أهل الباطل، واستُخفي فيهم بالمحارم، فلا يظهر من أحد محرّم إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم، فلم ينههم أهل الصلاح أنزلت العقوبات من السماء إلى الأرض، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزل من كتابه عند مثلة أهلك بها أحداً نجّىٰ أحداً من أولئك إلا أن يكون الناهين عن المنكر.

ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يصبهم بعذاب من عنده، أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف، والذل، والنقم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر، وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو يجعلنا مداهنين للظالمين.

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم، وأمن الفساق في مدائنكم، وجاهروا بالمحارم بأمر لا يُحب الله مَنْ فعله، ولا يرضى المداهنة عليه.

كان لا يظهر مثله في علانية قوم يرجون لله وقاراً، ويخافون منه غِيَرا، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور أي أكثر من أهل الفجور وأعز منهم.

وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم، بل كانوا «**أشداء على الكفار رحماء بينهم**» «**أذلة على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل ولا يخافون لومة لائم**».

ولعمري إن من الجهاد الغلظة على محارم الله بالأيدي، والألسن، والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر، وإنما سبيل الله طاعته.

وقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق، قليل التكلف، مقبل على نفسه. وما جعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً، بل أولئك أسوءكم أخلاقاً، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها، بل وقع فيها إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمره الله به أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد زلّت ألسنة كثير من الناس بآية وضعوها غير موضعها، وتأولوا فيها قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾. وصدق الله ـ تبارك وتعالى ـ ولا يضرنا ضلالة من ضل إذا اهتدينا، ولا ينفعنا هدى من اهتدى إذا ضللنا ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾.

وإن مما على أنفسنا، وأنفس أولئك مما أمر الله به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلا يظهر لله محرّماً إلا انتقموا ممن فعله منهم. من كنتم ومن كانوا.

وقول من قال: إن لنا في أنفسنا شغلاً، ولسنا من الناس في شيء لو أن أهل طاعة الله رجع رأيهم إلى ذلك ما عمل لله بطاعة، ولا تناهوا له عن معصية، ولقهر المبطلون المحقين، فصار الناس كالأنعام، أو أضل سبيلاً.

فتسلطوا على الفساق مَن كنتم ومن كانوا، فادفعوا بحقكم باطلهم، وببصركم عماهم، فإن الله جعل للأبرار على الفجار سلطاناً مبيناً، وإن لم يكونوا ولاةً ولا أئمة.

من ضعف عن ذلك، فليرفعه إلى إمامه، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى، قال الله لأهل المعاصي: ﴿**أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين**﴾. ولينتهين الفجار أو ليهيننهم الله بما قال ﴿**لنغرينك بهم**﴾. الآية.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر، فقال لها الرجل: **يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمور، وضربوا بالمعازف غار الله ـ عز وجل ـ في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم. فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها عليهم، قال: ياأم المؤمنين أعذابًا لهم؟ قالت: بل موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذابًا وسُخطًا على الكافرين فقال أنس: ماسمعت حديثًا بعد رسول الله ـ ﷺ ـ أنا أشد فرحاً به مني بهذا الحديث.**

وذكر ابن أبي الدنيا حديثًا مرسلاً أن الأرض تزلزت على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فوضع يده عليها ثم قال: «اسكني، فإنه لم يأن لك بعد». ثم التفت إلى أصحابه، فقال: **«إن ربكم ليستعتبكم فأعتبوه»**. ثم تزلزلت بالناس على **عهد** عمر بن الخطاب، فقال: أيها الناس ماكانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدًا.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الأمصار: أما بعد: فإن هذا الرجف شيء يعاقب الله ـ عز وجل ـ به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا، في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء، فليتصدق به، فإن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلىٰ**﴾. وقولوا كما قال آدم: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾. وقولوا كما قال يونس: ﴿**لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾.

قال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله أن ترىٰ مايسخط الله فتجاوزه ولا تنهىٰ عنه خوفًا ممن لايملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا.

* * *

الأكل بكتاب الله

أقبل عيسى بن مريم على أصحابه ليلة رُفع ، فقال لهم : لا تأكلوا بكتاب الله ، فإنكم إن لم تفعلوا أقعدكم الله على منابر الحجر منها خير من الدنيا ومافيها .

قال عبدالجبار: وهي المقاعد التي ذكر الله في القرآن : ﴿**في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ . الزهد لابن المبارك ص ٥٠٧ .

كان رجل ضرير يجالس سفيان الثوري ، فإذا كان شهر رمضان يخرج إلى السواد، فيصلي بالناس، فيُكسىٰ ، ويُعطى ، فقال سفيان : إذا كان يوم القيامة أثيب أهل القرآن من قراءتهم، ويقال لمثل هذا : قد تعجلت ثوابك في الدنيا . فقال : ياأبا عبدالله ! تقول لي هذا وأنا جليسك . قال : أخاف أن يقال لي يوم القيامة : كان هذا جليسك أفلا نصحته؟

قال بشر بن الحارث : مثل الذي يأكل من الدنيا بالعلم والدين مثل الذي يغسل يديه من الزهومة بماء تنظيف السمك، أو مثل الذي يطفيء النار بالحلفاء .

قال الإمام أحمد: لاتكتبوا العلم عمن يأخذ عليه عرضًا من الدنيا .

كان سري السقطي يذم من يأكل بدينه ويقول: من النذالة أن يأكل العبد بدينه .

قال سفيان الثوري : إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

❊ ❊ ❊

لطيف الفطنة وخفي اللطف

أوحىٰ الله إلى بعض أنبيائه: «أدرك لي لطيف الفطنه وخفي اللطف فإني أحب ذلك منك».

قال: يارب ومالطيف الفطنة؟ قال: إذا وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها، فاسألني أرفعها. قال: وماخفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حبة فاعلم أني أنا ذكرتك بها. إغاثة اللهفان ج١ ص٣٤.

إذا كان هذا في مثل هذه الأمور الدقيقة، فكيف بما لايحصىٰ ولايعد من المنعم.

والتمثيل بالذبابة وسؤال الله رفعها ليس هو مقصود بذاته، فمعلوم أن لاأحد يسأل الله مثل هذا.

لكن المراد العلم اليقيني أنه إن لم يرفعها الله عنك، فلا هي ترتفع، ولا أحد يستطيع ذلك، فيحصل للقلب عبودية خاصة، ومعرفة جليلة بتوحيد الربوبية الذي هو كالمدخل لتوحيد الإلٰهية.

لأنه إذا استشعر قلبه انفراد الرب ـ عز وجل ـ بتحريك المتحرك، وتسكين الساكن صار اعتقاده أن جلب النفع ودفع الضر نتيجة حتمية لهذا الاعتقاد، فأوجب له ذلك تعلق القلب بربه فيما يرجوه ويخافه وانقطاع تعلقه فيمن سواه.

❊ ❊ ❊

التجمـل بالمثلة

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: لما كان القاضي حسام الدين الحنفي مباشرًا لقضاء الشام أراد أن يحلق لحية الأذرعي وأحضر الموسىٰ والحمار ليُركبه ويطوف به. مجموعة الفتاوى ج٢ ٢٧٠.

سبحـان مقلب القلوب، ومبـدل الأحوال. المثلة والعقوبة في الماضين تكون جمالاً وزينة في المتأخرين. النقص في العقل والدين لابد أن يكون في أحد الفريقين.

قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه هو حامل راية الأنصار مع رسول الله ـ ﷺ ـ كان سماطًا ليس في وجهه شعره، فقال الأنصار: وددنا أن نشتري لقيس بن سعد لحية بأموالنا..

تأمَّل الغلاء والرخص، والكمال والنقص.

* * *

الأصنـام

عن قيس بن السائب قال: كان أبواي يمخضان اللبن حتى إذا أدرك أفرغا منه في صحن، فيقولان: اذهب بهذا إلى آلهتهم، قال: فيأتي الكلب، فيشرب اللبن، ويأكل الزبد، ثم يُسفر برجله، فيبول عليها.. يعني الآلهة.

قال أبي بن كعب: مع كل صنم جنيّه.

وقال ابن عباس: في كل صنم شيطان يتراءىٰ للسدنة، فيكلمهم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فَوَضْع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبًا منا به وقائمًا مقامه، وإلا فمن المعلوم أن عاقلاً لاينحت خشبة أو حجرًا بيده، ثم يعتقده أنه إلـٰهه ومعبوده.

ومن أسبـاب عبادتها أيضًا أن الشياطين تدخل فيها، وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيبـات[1]، وتـدلهم على بعض مايخفىٰ عليهم، وهم لايشاهدون الشياطين. إلى آخر كلامه.

إغاثة اللهفان جـ٢ ص٤٢٤ .

كان بعض أئمة الإسلام إذا رأىٰ صليبيًا أغمض عينيه عنه، وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سبّ إلـٰهه ومعبوده بأقبح السب.

إغاثة اللهفان جـ٢ ص٢٨٤ .

كان العوام بن جهيل ـ رضي الله عنه ـ يحدث بعد إسلامه، قال: كنت أسمر مع جماعة من قومي، فإذا أوىٰ أصحابي إلى رحالهم، بُت أنا في بيت الصنم، فقمت في ليلة ذات ريح وبـرق ورعد، فلما انهار الليل سمعت

---

(١) يعني رحمة الله بالمغيبات الأشياء التي يقدر عليها الشياطين مثل مايكون في بلاد بعيدة ونحو ذلك ليس الغيب الذي لايعلمه إلاَّ الله.

هاتفًا من الصنم يقول: ولم أكن سمعت منه كلامًا قبل ذلك ـ ياابن جهيل حَلَّ بالأصنام الويل هذا نور سطع من الأرض الحرام، فودَّع يغوث بالسلام. قال: فألقىٰ الله في قلبي البراءة من الأصنام، فكلمت قومي ماسمعت فإذا هاتف يقول:

وهل تسمعنَّ القول ياعوام — أم قد صممت عن مدى الكلام
قد كشفت دياجير الظلام — وأصفق الناس على الإسلام
فقلت ياأيها الهاتف بالعوام — لست بذي وقر عن الكلام
فبيِّن عن سنة الإسلام

قال وماكنت والله عرفت الإسلام قبل ذلك.

فأجابني يقول:

ارحل على اسم الله والتوفيق — رحلة لا وانٍ ولا مشيق
إلى فريق خير مافريق — إلى النبي الصادق المصدوق

فرميت الصنم وخرجت أريد النبي ـ ﷺ ـ فصادفت وفد همدان يدور بالنبي ـ ﷺ ـ ثم قال:

أخبر المسلمين وأمرني النبي ـ ﷺ ـ بكسر الأصنام، فرجعت إلى اليمن، وقد امتحن الله قلبي بالإسلام، وقلت في ذلك.

من مبلّغ عنا شآمي قومنا — ومن حل بالأصواف سرًا وجهرًا
بأنا هدانا الله للحق بعدما — تهوّد منا عائر وتنصرا
وأنَّا برئنا من يغوث وقربه — يعوق وبايعناك ياخير الورى

قدم فدفد بن جنافة البكري على أبي سفيان بمكة وكان فدفد فاتك بني بكر، فاتفق مع أبي سفيان على قتل النبي ـ ﷺ ـ بعشرين فاقة، ودفع إليه خنجرًا مسمومًا، قال فدفد: فرحت من عند أبي سفيان وأنا نشوان، فلما صحوت فكرت في عظيم ماأقدمت عليه، فسرت حتى إذا كنت بالروحاء في ليلة مظلمة ماأرىٰ موضع أخفاف الناقة فلاح لي وميض البرق وإذا بهاتف من جوف الوادي يقول:

رســـول أتـــىٰ من عنـــد ذي الـــعـــرش صادق
على طرق الخـــيرات للنـــاس واقـــف

فظننته بعض السيارة، وقصدت الصوت، فلما بلغت موضعه تسمعت فلا حس فوقف شعري وعلمت أنه بعض الجن، فأنشدت أقول:

لك الخير قد أسمعتني قول هاتف ... ونبهت خوسًـــا قلبـــه غير خائف

فأجابني وكأنه تحت ناقتي:

لحا الله أقـــوامًـــا أرادوا محمـــدًا ... بســـوء ولااسقـاهمـوا ثوب ماطـر
عكـــوفًـا على الأوثـان لايتركـونها ... وقـــد أمَّ دينَ الله أهـل البصـائـر

فمضيت لوجهي وفيما سمعت، فأصبت رسول الله ـ ﷺ ـ في بني عبد الأشهل يتحدث، وقد أخبرهم عن كل ماتفق، وقال: «**سيطلع عليكم الآن فلا تهجوه**» وكنت لاأعرفه فقلت لصبي: أين هو محمد القرشي الذي قدم عليكم؟ فنظر إليَّ متكرهًا، وقال: ويلك ثكلتك أمك لولا أنك غريب جاهل لأمرت بقتلك. ألا تقول: أين رسول الله؟! هو ذاك عند النخلة العـوجاء عند أصحابه، فآته فإنك إذا رأيته أكبرته، وشهدت بتصديقه، وعلمت أنك لم تر قبله مثله. قال: فنزلت عن راحلتي، ثم أتيته، فأخبرني بما اتفق لي مع أبي سفيان ومع الهاتف، ثم دعاني إلى الإسلام، فأسلمت، وهو القائل:

ألا أبلغـا صخـر بن حرب رسالة ... بأني رأيت الحق عنـــد ابن هاشم
رأيت امـرأ يدعـو إلى البر والتقىٰ ... عليمًا بأحـكـــام الهـــدىٰ غير ظالم
فأخـــبرني بالـــغـــيب عما رأيتـــه ... وأسررتـــه من معشر في مكـــاتـم

تأمَّل حال صبيان الصحابة وتوقيرهم لنبيهم ـ ﷺ ـ ورضي الله عنهم.

* * *

الشـــرك

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله : سبب الشرك أن المشرك بان له شيء من جلالة الأنبياء والصالحين، ولم يعرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإلا لو عرفه لكفاه وشفاه عن المخلوق وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وماقدروا الله حق قدره**﴾. مؤلفات الشيخ محمد، التفسير القسم الرابع .

العبد لايُعبد وقد قال تعالى : ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا**﴾. الآية والداعي ولايُدعىٰ .

قال العلماء: وأما الزيارة الشركية فأصلها مأخوذ من عباد الأصنام قالوا : الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لايزال تأتيه الألطاف من الله، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علّق الزائر روحه به وأدناها فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء على الجسم المقابل له. قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف بهمته عليه، ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لايبقىٰ فيه التفات إلى غيره، وكلما كان اجتماع القلب والهمة عليه أعظم كان أقرب إلى الانتفاع به .

وقد ذكر هذه الزيارة ابن سينا والفارابي وغيرهما، وصرّح بها عباد الكواكب في عبادتها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادًا، وتعليق الستور عليها، وإيقاد السرج، وبناء المساجد عليها، وهو الذي قصد رسول الله صلى الله ـ ﷺ ـ إبطاله ومحوه بالكلية وسد الذرائع المفضية إليه، فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ في شق وهؤلاء في شق .

وهـذا الذي ذكره هؤلاء في زيارة القبور والشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله، قالوا: فإن العبد إذا تعلّق روحه بروح الوجيه المقرب عند الله وتوجّه بهِمَّته إليه، وعكف بقلبه عليه، وصار بينه

وبينه اتصال يفيض عليه نصيب مما يحصل له من الله، وشبّهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحَضْوَةٍ وقرب من السلطان، وهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلِّق به بحسب تعلقه به فهذا سِرُّ عبادة الأصنام. مجموعة التوحيد ص**٢٢**.

تأمله فإنه نافع جدا ليحصل لك الفرقان بين عبادة الشيطان وعبادة الرحمن. حيث أن مقصود الشيطان بهذا أن يصرف قلب العبد عن التعلق بإلـهه الحق ـ سبحانه ـ فصاغ هذه الحيلة وشبّه للأشقياء الخالق بالمخلوقين.

ومعلوم أن من تعلق قلبه بغير الله ـ عز وجل ـ هذا التعلق أنه ينصرف عن عبوديته لأن هذا التعلق هو لبّها، ولو ذكر الله بلسانه، وصلى، وصام، وحج، وعمل الطاعات كلها، فهو مشرك لأجل هذا الاعتقاد الباطل.

وكلمة التوحيد تنفي هذا التعلق عما سوى الله وتثبته له سبحانه.

لأن إلـه هو ماانجذبت إليه الروح والقلب بهذا الاعتقاد المذكور ولو لم يسمِّه متخذه إلـهًا.

وتأمَّل المثال السابق يتبين لك أن الذي يخدم ذاجاه وحضوة وقرب من السلطان وهو شديد التعلق به لاعتقاده أن مايحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينـالـه منه بحسب تعلقه أنه فارغ القلب من التعلق بالسلطان أو الاهتمام بشأنه، لأنه قد أنزل حاجته بهذا الوجيه، فأوجب له ذلك ذله وخضوعه وحبه للوجيه دون السلطان.

وهذا هو الشرك الأكبر الذي من مات عليه خُلِّد في جهنم وأعماله كلها حابطة.

وإذا كان هذا سِرّ عبادة الأصنام فيجب الاعتناء بمعرفته. الكلام لابن القيم أو شيخه قدَّس الله أرواحهما.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: ومن المأثور عن أبي يزيد ـ رحمه الله ـ أنه قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق. وعن الشيخ أبي

عبدالله القرشي أنه قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون.

وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء. قال سبحانه: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾. الفتاوىٰ جـ**١٤** ص**٢٩**.

تأمَّل قوله: فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء.

من عرف هذا حق المعرفة خلص توحيده لربه، وعلم أن توحيد الربوبية مع أنه لايُدخل في الإسلام وحده لكن لابد منه لتوحيد الإلهية، فإن الإنسان إذا استيقن أن الشفيع مهما كانت وجاهته لايستطيع أن يتحرك بالشفاعة إلا بتحريك الحق ـ سبحانه ـ له انقطع تعلقه فيمن سواه، وهذا بخلاف شفاعة الوجيه عند الملك، فالوجيه مخلوق والملك مخلوق، فلا يحتاج الوجيه إلى تحريك الملك له بالشفاعة، بل يفعل ذلك استقلالاً من غير علمه ومن غير إقداره له.

* * *

العلمـاء

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: قصم ظهري رجلان عالم مُتهتك وجاهل مُتنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه.

قال معاذ: احذروا زلة العالم لأن قدره عند الناس عظيم فيتبعوه على زلته.

كأن قول القائل: إذا زل العالِم زل بزلته عالَم مأخوذ من هذا.

وفي أخبـار داود ـ عليه السـلام ـ أن الله أوحىٰ إليه: ياداود إن أدنىٰ ماأصنـع بالعالم إذا آثر شهرته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، ياداود لاتسأل عني عالمًا أسكرته الدنيا، فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي.

وحكىٰ الأوزاعي عن بلال بن سعد أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منـه، وينـظر إلى علماء الـدنيا المتصنعـين للخلق المتشوقين إلى الرياسة فلا يمقتهم، هؤلاء أحق بالمقت من ذلك الشرطي.

قال صالح بن حسان البصري: أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة.

قال بعضهم عن الـذين يتعيشـون بدينهم: وضعوا مفاتيح الدنيا على الدنيا فلم تنفتح، فوضعوا عليها مفاتيح الآخرة فانفتحت.

هؤلاء استعملوا مفاتيح الآخرة بغير عملها.

سُئل الحسن ـ رحمه الله ـ: ماعقوبة العالم إذا آثر الدنيا، قال: موت قلبه.

قال عباد بن عباد الخوّاص: كيف يهتدي السائل إذا كان الدليل حائرًا. أحَبّوا الدنيا وكرهوا منزلة أهلها، فشاركوهم في العيش وزايلوهم بالقول.

لذلك يقول الحسن: عِظ الناس بفعلك، ولاتعظهم بقولك.

قال سفيان الثوري - رحمه الله -: العالم طبيب هذه الأمة، والمال داؤها، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه، فكيف يعالج غيره؟ اليوم نصبوا نفوسهم أطباء وفيهم الداء العضال.

قال يحيٰ بن معاذ الرازي: العلماء العاملون أرأف بأمة محمد - ﷺ - وأشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم.

قيل له: كيف؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها.

انظر قوله: العلماء العاملون:

أما الصنف الآخر من العلماء، فقد قيل عنهم: علماء السوء أضر على الناس من إبليس، لأن إبليس إذا وسْوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو مضل مبين، فأخذ في التوبة من ذنبه واستغفرو، وعلماء السوء يفتون الناس بالباطل، ويزيدون في الأحكام على وفق الأغراض والأهواء بزَيغهم وجدالهم، فمن أطاع كان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

فاستعذ بالله منهم، واجتنبهم، وكن مع العلماء الصادقين.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لاتسمعوا منهم، فلو كان مادعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له. فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طريق.
الفوائد ص٦١.

من هنا يقال: كيف يهتدي السالك والدليل حائر.

قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك من قومك؟ قال: حسنة. قال كعب: إن التوراة لتقول: غير ذلك. قال: وماتقول؟ قال: تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف، ونهىٰ عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. فقال: صَدَقَت التوراة، وكذب أبو مسلم.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: إذا رأيتم العالم كثير الأصدقاء، فاعلموا أنه مخلّط لأنه إذا نطق بالحق أبغضوه.

ينبغي عدم الاغترار بكثرة الأتباع لاسيما وقتنا هذا حيث أن الناس لايتبعون من يعارض أهواءهم، ولايريدونه، ولذلك يقول بعض الصحابة: ماترك قول الحق لعمر بن الخطاب في الناس من صديق. وقد قيل: كثرة الأخلاء من رِقّة الدين.

* * *

مضرة تقليد الناس في المدح والذم

وجعلت قريش حين منع الله نبيه - ﷺ - منهم يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب. لما قدم الطفيل مكة ورسول الله - ﷺ - بها مشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: ياطفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وأنا نخشىٰ عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا، فلا تكلمنه، ولاتسمعن منه شيئًا.

قال: فوالله مازالوا بي حتى أجمعت أن لاأسمع منه شيئًا، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لاأريد أن أسمعه. قال فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريبًا، فأبىٰ الله إلا أن يُسمعني بعض قوله. قال: فسمعت كلامًا حسنًا، قال: فقلت في نفسي واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر مايخفىٰ عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته. قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله - ﷺ - إلى بيت، فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يامحمد! إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فوالله مابرحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبىٰ الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولاً حسنًا، فأعرض عَليّ أمرك، قال: فعرض على رسول الله - ﷺ - الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ماسمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت يانبي الله! إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل

لي آية تكون لي عونًا عليهم فيما ادعوهم إليه، فقال: «**اللهم اجعل له آية**».

فقال فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية، تطلعني على الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم. قال: فتحول في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية. قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم. قال: فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخًا كبيرًا. قال: فقلت إليك عني ياأبت فلست منك ولستَ مني، قال: ولم يابني؟ قال: قلت أسلمت، وتابعت دين محمد ـ ﷺ ـ قال: أي بني! فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب، فاغتسل، وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ماعلمت، قال: فذهب، فاغتسل، وطهّر ثيابه، قال: ثم جاء، فعرضت عليه الإسلام، فأسلم. قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت إليكِ عني فلست منكِ ولستِ مني قالت: لم بأبي أنت وأمي؟ قال: قد فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ـ ﷺ ـ قالت: فديني دينك، قال: قلت فاذهبي إلى حِناذي الشرى فتطهري منه.

قال: وكان ذو الشرىٰ صنماً لدوس، وكان الحمى حوله به وشل من ماء يهبط من جبل. قال: فقالت: بأبي أنت وأمي أتخشىٰ على الصبية من ذي الشرىٰ شيئًا؟ قال: قلت لا أنا ضامن لذلك، فذهبت، فاغتسلت، ثم جاءت، فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت، ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام، فأبطأوا عليَّ، ثم جئت رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة، فقلت له يانبي الله! إنه قد غلبني على دوس الزنا[1] فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد،

---

(١) الزنا: لهو مع شغل قلب وبصر قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ لما ذكر قصته الطفيل في كتابه زاد المعاد: «فصل في فقه هذه القصة» فذكر كلامًا ثم قال: وفيها أنَّه لاينبغي للعاقل أن يقلد الناس في المدح والذم ولاسيما تقليد من يَمدح بهوىٰ ويَذم بهوىٰ فكم حال هذا التقليد بين القلوب وبين الهدىٰ ولم ينج منه إلَّا من سبقت له من الله الحسنىٰ ص٣٧ الهدي ج٣.

ارجع إلى قومك، فادعهم، وارفق بهم، قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، ومضى بدر، وأحد، والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله - ﷺ - بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقنا برسول الله - ﷺ - بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

يعني أن الطفيل لو قلّد قريشًا في ذم النبي - ﷺ - لهلك، ولكنه نظر الأمر بنفسه.

* * *

الحضــارة وآثارها

قال بعضهم : إني لأتمنَّىٰ لشبابنا أن يكون بارًا بالبداوة التي أخرجت من أجـداده أبـطالها مُزْوَرًّا عن الحضارة التي رَمَتْه بقشورها فأرْخت أعصابه، وأنّثت شمائله، وخنَّثت طبـاعه، وقيّدته بخيوط الوهم، ووضعت في نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه مايُذْهب القفص من الأسد من بأس وصوله .

انتهىٰ

وصْف للحضارة عجيب لكن من يستجيب؟

* * *

العلم والحكمة

لما عُرّبت كتب اليونـان صار مامُـدِح من الكتـاب والسنة من مسمىٰ الحكمة يظن كثير من الناس أنه حكمة هذه الأمة [يعني اليونان] أو نحوها من الأمم، كالهند. .

ذكره شيخ الإسلام في نقض التأسيس ص**٣٢٣**.

هذا مثـل إطـلاق اسم العلم والعلماء في هذا الـزمـان على المـلاحدة وعلومهم حيث يظن كثـير من النـاس أن العلم الممدوح بالكتاب والسنة يدخل فيه هذا.

قال الأوزاعي ـ رحمه الله ـ: العلم ماجاء عن أصحاب محمد، وما لم يجيء عنهم، فليس بعلم.

البداية والنهاية جـ١٠ ص١١٧.

قال النبي ـ ﷺ ـ: «**يتقارب الزمان وينقص العلم وتظهر الفتن ويكثر الهرج. قيل يارسول الله: أيْمَ هو؟ قال: القتل القتل**».

قال أبو حاتم: في هذا الخبر كالدليل على أن مالم ينقص من العلم ليس بعلم الدين في الحقيقة إذْ أخبر المصطفى ـ ﷺ ـ على أن ضد العلم يزيد وكل شيء زاد مما لم يكن مرجعه إلى الكتاب والسنة فهو ضد العلم.

مقدمة المجروحين لابن حبان ص١٢.

تأمَّـل قوله: وكل شيء زاد مما لم يكن مرجعه الكتاب والسنة فهو ضد العلم، وتفقد مازاد ومانقص.

* * *

النفوس ثلاثة

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: النفوس ثلاثة: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف، واكتساب الفضائل، والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قُوتها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفس سبعية غضبية، فمحبتها منصرفة إلى القهر، والبغي، والعلو في الأرض، والتكبر، والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به.

ونفس حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفة إلى المأكل، والمشرب، والمنكح. وربما جمعت الأمرين، فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض، والفساد، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**﴾.

وقال في آخر السورة: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين**﴾. والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة، فأي نفس منها صادفت مايلائم طبعها استحسنته، ومالت إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم، وكل قسم من هذه الأقسام يرون أن ماهم فيه أولىٰ بالإيثار، وأن الاشتغال بغيره، والإقبال على سواه غبن وفوات حظ.

فالنفس السماوية بينها وبيني الملائكة والرفيق الأعلى مناسبةٌ طبْعية بها مالت إلى أوصافهم، وأخلاقهم، وأعمالهم.

فالملائكة أولياء هذا النوع في الدنيا والآخرة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون. نزلاً من غفور رحيم**﴾.

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له، والإرشاد، والتثبيت، والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة، ووليُّه، ومعلمه، ومثبته، ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن. وإن بات طاهرًا يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو بسوء وهو نائم دفعه عنه.

فصل: والشياطين أولياء النوع الثاني، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيَّن لهم الشّيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**كتبَ عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا. يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلى غرورًا أولئك مأواهم جهنم ولايجدون عنها محيصًا**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا**﴾.

فهذا النوع بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبة طبْعية بها مالت إلى أوصافهم، وأخلاقهم، وأعمالهم، فالشياطين تتولاهم بضد ماتتولىٰ به الملائكة لمن ناسبهم، فتؤزهم إلى المعاصي أزا، وتزعجهم إليها إزعاجًا لايستقرون معه، ويزينون لهم القبائح، ويخففونها على قلوبهم، ويُحلُّونها في نفوسهم، ويثقلون عليهم الطاعات، ويثبطونهم عنها، ويقبحونها في أعينهم، ويلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام ومالايفيد، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم. يبيتون معهم حيث باتوا، ويقيلون معهم حيث

قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم. قال ـ تعالى ـ: **﴿ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا﴾**. وقال ـ تعالى ـ: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾**.

فصل: وأما النوع الثالث فهم أشباه الحيوان، ونفوسهم أرضية سفلية لاتبالي بغير شهواتها، ولاتريد سواها.

إذا عرفت هذه المقدمة فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبه ومراده، فمن تلك العلامات تعرف من أي هذه الأقسام هو.

روضة المحبين ص**٢٥٩**

* * *

الدنيـا

قال عيسى ـ عليه السلام ـ يابني إسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة، ولاتكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

وحب الـدنيا يدعـو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة، ولاسيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها، فيُسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها وعن كراهتهـا واجتنابها، وحبها يوقع في الشبهات، ثم في المكروهات، ثم في المحرمات، وطالما أوقع في الكفر، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا فإن الرسل لما نَهَوْهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم. فكل خطيئة في العالم أصلها حب الدنيا، ولاتنسى خطيئة الأبوين قديمًا، فإنما كان سببهـا حب الخلود، ولاتنسى ذنب إبليس وسببـه حب الرئاسة التي محبتها شر من محبة الدنيا، وبسببها كفر فرعون، وهامان، وجنودهما. وأبو جهل، وقومه، واليهود.

فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمّر النار بأهلها.

والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمَّر الجنة بأهلها.

والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لايفيق منه إلا في ظلمة اللحد، ولو انكشف غطاؤه في الدنيا لعلم ماكـان فيه من السكر، وأنه أشد من سكر الخمر، والدنيا تسحر العقول أعظم سحر. قال الإمام أحمد: حدثنا سيار حدثنا جعفر، قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة. اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء.

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق

إلا في عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين.

وأقل مافي حبها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان، وصرَّفه حيث أراد، ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبَّد لها قلبه، فأين يقع مايفعله من البر مع تعبيده لها.

وحب الدنيا رأس الخطايا، ومفسد للدين من وجوه: أحدها أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكَّبر الذنوب تعظيم ماحقر الله. وثانيها أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ماكان له فيها، ومن أحب مالعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرَّض للعنتة ومقته وغضبه. وثالثها أنه إذا أحبها صيَّرها غايته وتوسَّل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر، وقلب الحكمة فانتكس قلبه وانعكس سيره إلى ورائه.

قال يونس بن عبدالأعلى: ماشبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه مايكره ومايحب فبينما هو كذلك انتبه.

أرىٰ أشقياء الناس لايسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوَّع
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشّع

أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلّص وانقباض، فتتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب. وأشبه الأشياء بها المنام يرىٰ فيه العبد مايحب ومايكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لاحقيقة له. تالله لقد أذَّن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحي على غير الفلاح. فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرىٰ عند الصباح، طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلى وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شباكها فأسلمتهم للذباح.

قال أبو العلاء: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا،

والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها، فجئت، فنظرت، فتعجبت من نظرهم إليها، وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا. قالت: أنا الدنيا، وقال: قلت: أعوذ بالله من شرك، قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

قال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزًا مشوهة شمطاء تصفق بيديها، وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت إليَّ، فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ماصنَعت بهؤلاء، ثم بكى أبو بكر.

وَوَصف علي ـ رضي الله عنه ـ الدنيا فقال: دارٌ من صحّ فيها هرم، ومن سقمَ فيها ندم. ومن افتقر فيها حزن. ومن استغنى فيها فتن. في حلالها الحساب، وفي حرامها النار.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الدنيا دار من لا دار له. ومال من لامال له. ولها يجمع من لا عقل له.

كتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة فاحذرها ياأمير المؤمنين، فإن الزاد فيها تركها. والغنىٰ فيها فقرها، لها في كل حال قتيل، وتذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لايعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كمُداوٍ جِراحاته يحتمي قليلاً مخافة مايكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخدّاعة التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وخيّلت بآمالها، وشوَّقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب إليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة. فلا الباقي بالماضي معتبر. ولا الآخِر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مُدَّكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغىٰ، ونسى المعاد فشغل فيها لبه حتى زلَّت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واجتمع عليه سكرات الموت وألمه،

وحسرات الفوت ونقصه، فذهبت منها في كمد، ولم يدرك منها ماطلب، ولم يُرح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها ياأمير المؤمنين، وأسرُّ ماتكون فيها أحذر ماتكون منها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه. السار منها غدًا ضار. وقد وُصل الرخاء منها بالبلاء. وجعل البقاء فيها إلى فناء فسرورها مشوب بالحزن مايرجع منها ماولى فأدبر، ولايُدرىٰ ماهو آت فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبرًا ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل: فكيف وقد جاء من الله ـ عز وجل ـ عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله قدر ولا وزن، ومانظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا ـ ﷺ ـ بمفاتيحها وخزائنها لاتنقصه عند الله جناح بعوضة فأبىٰ أن يقبلها، وكره أن يحب ماأبغض الله خالقه، أو يرفع ماوضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، فيظن المغرور بها، القادر عليها أنه أكرم بها. ونسي ماصنع الله بمحمد ـ ﷺ ـ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضًا: ابن آدم لاتعلق قلبك في الدنيا فتعلقه بشر معلق. اقطع حبالها، وغلّق أبوابها، حسبك ياابن آدم منها مايبلغك المحل.

وكان يقول: إن قومًا أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنأ ماتكونوا إذا أهنتموها، هيهات هيهات ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق.

وقال المسيح ـ عليه السلام ـ: لاتتخذوا الدنيا ربًا فتتخذكم عبيدًا، واعبروها ولاتعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً، ماسكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لاينفك عناؤه، وفقر لايدرك غناؤه. وأمل لايدرك منتهاه. الدنيا طالبة مطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه. وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حين يجيء الموت فيأخذ بعنقه. يامعشر

الحواريين ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا.

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله ـ تعالى ـ إلى يوم يفنيها تنادي ربها: يارب لم تبغضني، فيقول: اسكتي يالا شيء. اسكتي يالا شيء.

وقال الفضيل: تجيء الدنيا يوم القيامة، فتتبختر في زينتها ونضرتها، فتقول: يارب اجعلني لأحسن عبادك دارًا، فيقول: لاأرضاك له. أنت لا شيء، فكوني هباء منثورًا.

وقال المسيح ـ عليه السلام ـ: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

وهذا مثل صحيح، فإن الحياة معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخرها، ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها. وكيفما كان فلابد من العبور فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يُستحث العبور فهو في غاية الجهل والحمق.

ولو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل والآخرة لاتفنىٰ فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل، فالدنيا نَفَس من أنفاس الآخرة، وساعة من ساعاتها.

قال موسىٰ ـ عليه السلام ـ: يارب أرني وليًا من أوليائك، قال: أطلبه في حوبة كذا وكذا، فطلبه، فإذا فيها عظام رجل قد أكلته السباع، فقال: يارب ماأرى غير العظام، قال: هي عظام ولي، قال: يارب وأرسلت عليه السباع؟ قال: نعم وعزتي ماأخرجته من الدنيا إلا جائعًا ظمآنًا، قال: ولم ذلك يارب؟ قال: لمنزلته عندي لو رأيتها لزهقت نفسك شوقًا إليها إني لاأرضىٰ الدنيا لولي من أوليائي..

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ عند قوله ـ تعالى ـ: **﴿زين للناس حب**

الشهوات من النساء والبنين﴾. الآية. قال: وإنما المراد بها التزهيد في هذا الفاني الذاهب، والترغيب في الباقي الدائم، والإزراء بمن آثر هذا المزيَّن واتبعه بمنزلة الصبي الذي يزين له مايلعب به، فيهشّ إليه، ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين فلم يقل زيَّنا للناس. والله ـ تعالى ـ يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وزيَّن لهم الشيطان ماكانوا يعملون**﴾. وقال: ﴿**وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم**﴾. إلى آخر كلامه رحمه الله.

إذا امتحن الدنيا لَبيبٌ تكشّفتْ
له عن عدو في ثياب صديق.

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي.

وقال: لاخير في القاريء يعظم أهل الدنيا.

قال يحى بن معاذ الرازي رحمه الله: لايزال دين العبد متمزقًا مادام قلبه بحب الدنيا متعلقًا.

قال عبدالملك بن مروان عند موته:

لعمري لقد عمَّرتُ في الدهر برهة
ودانت لي الدنيا بِوَقع البواترِ
فأضحىٰ الذي قد كان مما يسرني
كلمح مضىٰ في المزمنات الغوابر
فياليتني لم أُعْنَ بالملك ساعة
ولم ألْهُ في لذات عيشٍ نواضر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغة
من الدهر حتى زار ضنك المقابر

ولا تنس نصيبك من الدنيا

قال عون بن عبدالله في هذه الآية: إن ناسًا يضعونها في غير موضعها. إنما هي أقبل على طاعة ربك وعبادته. ولمجاهد في معنىٰ هذه الآية: خذ من دنياك لآخرتك أن تعمل فيها بطاعته.

وعن منصور بن عمار في معناها قال: ليس عرض من عرض الدنيا ولكن نصيبك عمرك أن تقدم فيه لآخرتك.

تأمَّل فقه السلف. فالرب ـ عز وجل ـ يعلم أنهم عباده، ليسوا بحاجة إلى من ينهاهم عن نسيان نصيبهم من الدنيا، ولذلك جاء النهي والتحذير عن الانهماك بها والاغترار فيها.

ولما كانت قلوبنا هاهنا استدللنا بهذه الآية على غير مدلولها.

* * *

قصة وموعظة

قال عبدالله بن مسلم العجلي:

كانت امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترىٰ أحدًا يرىٰ هذا الوجه لايفتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير. قالت: فائذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك. قال: فأتته كالمستغيثة فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، قال: فأسفرت عن مثل فلقة القمر، فقال لها: ياأمة الله. قالت: إني قد فتنت بك فانظر في أمري. قال: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك. قالت: لاتسألني عن شيء إلا صدقتك. قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أدخلت في قبرك، وأجلست للمسائلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولاتدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمسائلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟. قالت: اللهم لا. قال: صدقتِ، قال: اتقي الله ياأمة الله، فقد أنعم الله عليكِ وأحسن إليكِ، قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ماصنعت؟ قالت أنت بطَّال، ونحن بطَّالون، فأقبلت على الصلاة، والصوم، والعبادة. قال: فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير، أفسد عليَّ امرأتي كانت في كل ليلة عروسًا، فصَيَّرها راهبة.

* * *

الناس كأسـراب القطا

قال شيخ الإسلام: فكم ممن لم يرد خيرًا ولا شرًا حتى رأىٰ غيره لاسيما إن كان نظيره يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض.

الفتاوى جـ ٢٨ ص١٤٩.

سبحان الله! كم هلك بذلك من هلك، وكم نجا من نجا:

لو سألت شارب الدخان ماالذي أوقعك فيه؟ لقال: جالست من يشربه فتعوّدت منه. ولو قلت له: هل كنت تستلذّه في بداية شربك له؟

لقـال: لا. بلٍ: كنت ألاقي الشـدائـد من الغثيان، والتخدر، وتألم العيون، ولكني أوطن نفسي لمجارات جلسائي ولأفعل مثل مايفعلون.

من هنا يتبين لك معنى الحديث الذي فيه مثل الجليس الصالح والجليس السوء. والتمثيل بشرب الدخان ليس لأنه الوحيد الذي له هذه الصفة، ولكن لأنه مستقبح ومؤذ وكريه، ومع هذا يُوَطِّن المُجالس لشرّابه نفسه على شُرْبِهِ حتى يبقى عادة راسخة، وسيأتي بعد هذا كلام لابن القيم ـ رحمه الله ـ يبـين أن تسلّط الشيطان على الإنسان لوجود قُوته في قلبه، وأنه إذا أخرجه بعد عنه الشيطان كالكلب.

أما مجالسة أهل الصلاح فلا تحتاج إلى كلام، وكلا الأمرين في الغاية من الوضوح كل أحد يعرف هذا، ولذلك يقال في المثل العامي عندنا: «من رافق المصلين صلىٰ ومن رافق المولِّين وَلّى».

* * *

تطهير القلب من قُوت الشيطان

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والشيطان يلم بالقلب لِما كان هناك من جواذب تجذبه، وهي نوعان:

صفات وإرادات. فإذا كانت الجواذب صفات قوي سلطانه هناك، واستفحل أمره، ووجده موطنًا ومقرًا، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس لاتدفع سلطان الشيطان لأن مركبه صفة لازمة، فإذا قلع العبد تلك الصفات، وعمل على التطهّر منها والاغتسال بقي للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار، وذلك يضعفه ويقوي لَمّةَ الملك، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقًا فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك، ويراك لاتقاومه، وهو أقرب منك، فأنت تزجره وتصيح عليه، وهو يأبىٰ إلا التحوّم عليك والغارة على مابين يديك، فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له ولكن معلومُهُ ومراده عندك وقد قرّبته عليك، فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له، وقد تأمّلك فرآك أقوىٰ منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب، وكذلك القلب الخالي من قُوت الشيطان ينزجر بمجرد الذكر، وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبه، وموطنه، فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولايقوىٰ على إخراج العدو منه.

التبيان في أقسام القرآن ص**٢٦٦**

إذًا الواجب علينا إخراج قوت الشيطان من قلوبنا بالتوبة الصادقة.

* * *

أهل السنة وأهل البدعة

قال شيخ ـ رحمه الله ـ: وكل من وافق الرسول ـ ﷺ ـ في أمر خالف فيه غيره، فهو من الذين اتبعوه في ذلك وله نصيب من قوله: «**لاتحزن إن الله معنا**». فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة، وهذا قد دل عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجرّبنا مايطول وصفه وقال ـ تعالى ـ: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم**﴾. إلى آخر السورة. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر**﴾. فمن شنأ شيئًا مما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ فله من ذلك نصيب، ولهذا قال أبو بكر بن عياش لما قيل له: إن بالمسجد أقوامًا يجلسون ويُجلس الناس إليهم، فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه لكن أهل السنة يبقون ويبقىٰ ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم، وذلك أن أهل البدعة شنأوا بعض ماجاء به الرسول ـ ﷺ ـ فأبْترهم بقدر ذلك، والذين أعلنوا ماجاء به النبي ـ ﷺ ـ فصار لهم نصيب من قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾. فإن ماأكرم الله به نبيه من سعادة الدنيا والآخرة. فللمؤمنين المتابعين نصيب بقدر إيمانهم، فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه أحد من أمته، وماكان من ثواب الإيمان والأعمال الصالحة فلكل مؤمن نصيب بقدر ذلك.

الفتاوى جـ**٢٨** ص**٣٨**

وقال: ونحن لانعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه، أو كتابته، أو روايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه، ومعرفته، وفهمه ظاهرًا وباطنًا، واتباعه باطنًا وظاهرًا.

الفتاوى جـ**٤** ص**٩٥**

تأمَّل اتباعه ظاهرًا وباطنًا.

الراغبون ثلاثة أقسام

راغب في الله ، وراغب فيما عند الله ، وراغب عن الله .

فالمحب راغب فيه ، والعامل راغب فيما عنده ، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه .

ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم ، وتولاه في جميع أموره ، ودفع عنه مالايستطيع دفعه عن نفسه ، ووقاه وقاية الوليد وصانه من جميع الآفات ، ومن آثر الله على غيره آثره الله على غير، ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه ، ومن عرف الله لم يكن شيء أحب إليه منه ، ولم تبق له رغبة فيما سواه إلا فيما يقربه إليه ، ويعينه على سفره إليه .

روضة المحبين لابن القيم ص٤٠٦

* * *

الصراط المستقيم

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: فإن الصراط المستقيم أن يفعل العبد في كل وقت مايؤمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولايفعل مانُهيَ عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل مايؤمر به في ذلك الوقت ومانهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصل، والإرادة المفصلة لايُتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات مايهتدي به في ذلك الصراط المستقيم.

نعم حصل له هدىً مجمل بأن القرآن حق، والرسول حق، ودين الإسلام حق، ولكن هذا المجمل لايغنيه إن لم يحصل له هدى مفصَّل في كل مايأتيه، ويذره من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق، ويغلب الهوىٰ والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم.

والإنسان خلق ظلومًا جهولاً، فالأصل فيه عدم العلم، وميله إلى مايهواه من الشر، فيحتاج دائمًا إلى علم مفصل يزول به جهله، وعدل في محبته، وبغضه، ورضاه، وغضبه، وفعله، وتركه، وإعطائه، ومنعه، وأكله، وشربه، ونومه، ويقظته، فكل مايقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه، فإن لم يمنّ الله عليه بالعلم المفصّل، والعدل المفصّل، وإلا كان فيه من الجهل والظلم مايخرج به عن الصراط المستقيم، وقد قال ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿**إنا فتحنا لك فتحًا مبينا**﴾. إلى قوله: ﴿**ويهديك صراطًا مستقيما**﴾. فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريبًا منها فكيف حال غيره؟!

والصراط المستقيم قد فُسِّر بالقرآن، وبالإسلام، وطريق العبودية، وكل هذا حق، فهو موصوف بهذا، وبغيره، فالقرآن مشتمل على مهمات، وأمور

دقيقة، ونواهي، وأخبار، وقصص، وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها. وكذلك الإسلام وماأشتمل عليه من المكارم، والطاعات، والخصال المحمودة: وكذلك العبادة وماأشتملت عليه.

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته، ونجاته، وفلاحه بخلاف حاجته إلى الرزق، والنصر فإن الله يرزقه فإذا انقطع رزقه مات والموت لابد منه.

الفتاوى جـ١٤ ص ٣٧

* * *

العبـــودية

فإن العبـد إنـما خلق لعبادة ربه، فصلاحه، وكماله، ولذته، وفرحه، وسروره في أن يعبد ربه، وينيب إليه، وذلك قدرٌ زائد على مسألته، والافتقار إليه.

الفتاوى جـ١٤ ص٣٢

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فصل: ومنها محبة دار المحبوب وبيته حتى محبة الموضع الذي حلّ به، وهذا هو السّر الذي لأجله علقت القلوب على محبـة الكعبة البيت الحرام حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هجر الأوطـان والأحباب. ولذّ لهم السفر الذي هو قطعة من العذاب، فركبوا الأخـطار، وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا في الوصول غاية المشاق، ولو أمكنهم لسعوْا إليها على الجفون والأحداق.

نعـمْ أسـعـىٰ إلـيك على جفـوني
وإن بعـدتْ لمسراك الـطريق

وسرّ هذه المحبة هي إضافة الرب سبحانه له إلى نفسه لقوله: ﴿**وطهِّر بيتي**﴾.

روضة المحبين ص٢٦٩

قال بعض أهـل العلم: إذا كانت مشـاهـدة مخلوق يوم ﴿**أخـرج عليهن**﴾. استغـرقت إحسـاس الناظرات، فقطعن أيديهن، وماشعرن، فكيف بالحال يوم المزيد؟!

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: شكرك لايساوي قدر قُوتك لاكانت دابة لاتعمـلُ بعلفهـا، متى رأيت العقل يؤثر الفاني على الباقي فاعلم أنه قد مُسخ، ومتى رأيت القلب قد رحل عنه حب الله، والاستعداد للقائه، وحلّ فيه حب المخلوق، والرضىٰ بالحياة الدنيا، والطمأنينة بها، فاعلم أنه قد

خُسِفَ به، ومتى قحطت العين من البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنـك لاتصلح له، ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لاتُطلب، ويَستدني سواك وأنت لاتُقرِّب، فإن تحركت لك قدم في الزيادة تخلَّف قلبك في المنزل، فاعلم أنه الحجاب والعذاب.

مزاج الإيمان منحرف عن الصحة، ونبض الهوىٰ شديد الخفقان. تحكمت أخلاط الشهوات في أعضاء الكسل، فثبّطت عن الحركة، فتولدت الأمراض المختلفة.

لو كشفت لك الدنيا ماتحت نقابها لرأيت المعشوقة عجوزًا، وماترضىٰ إلا بقتل عشاقها، يامؤثر مايفنى على مايبقىٰ هذا رأي هواك، فهلّا استشرت العقل لتعلم أنصحهما لك؟ لاتحقرن يسير المعصية، فالعشب الضعيف يفتل منه حبال تجر السفن، لو أحببت المعبود لحضر قلبك في عبادته.

كان مسلم بن يسار إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلموا وضحكوا علمًا منهم بالغيْبة. وقيل لبعضهم إنا لنوسوس في صلاتنا: قال: بأي شيء بالجنة أو الحور العين والقيامة؟ قالوا: لابل بالدنيا، فقال: لأن تختلف في الأسنة أحب إليَّ من ذلك.

قال بعضهم:

إذا زار بالجثمان غيري فإنني ... أزور مع الساعات ربْعك بالقلب

وماكل ناءٍ عن ديار بنازحٍ ... ولا كل دان في الحقيقة ذو قُرْب

ذكر أهل العلم أن الرجلين يصليان في الصف الواحد وبين صلاة أحدهما والآخر كما بين السماء والأرض.

* * *

مخالفة الناس وموافقتهم

قال بعض العلماء: فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ماعتاد الناس، فلابد من حصول نحو ماحصل لمخالفي العوائد لاسيما إذا ادَّعىٰ أهلها أن ماهم عليه هو السنة لاسواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل مع مافيه من الأجر الجزيل وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلفَ الصالحِ، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذًا بالله من ذلك إلا أني أوافق المعتاد وأعد من المؤالفين لامن المخالفين، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئًا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور فقامت عليَّ القيامة، وتواترت عليَّ الملامة، وفوّق إلى العتاب سهامه، ونُسبت إليَّ البدعة والضلالة، وأُنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وأني لو التمست لتلك المحدثات مخرجًا لوجدت غير أن ضيق العطن والبعد عن أهل الفطن رقىٰ بي مرتقىً صعبًا، وضيّق عليَّ مجالاً رحبًا، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتِّباع المتشابهات لموافقات العادات أولىٰ من اتِّباع الواضِحات وإن خالفت السلف الأول.

ص ٢٧ جـ ١ الاعتصام

هذا هو الواقعِ في وقتنا وأعظم منه، فاتِّباع المتشابهات والحرام لموافقة العادات أولىٰ من اتباع الواضحات عند كثيرٍ من الناس وإن خالفت السلف الأول.

* * *

امتناع رؤية الرب ـ عز وجل ـ في الدنيا

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في امتناع رؤية الرب عز وجل في الدنيا: قال: وإنما لم يُرَ لِعجز أبصارنا عن رؤيته لا لأجل امتناع رؤيته كما أن شعاع الشمس أحق بأن يُرى من جميع الأشياء ولهذا مثل النبي ـ ﷺ ـ رؤية الله به فقال: «**ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر**». شبّه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي مثل المرئي. ومع هذا فإذا أحدق البصر في الشعاع ضعف عن رؤيته لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله الآدميين وقوّاهم حتى أطاقوا رؤيته، ولهذا لما تجلَّى الله للجبل خرّ موسىٰ صعقًا، فلما أفاق قال: ﴿**سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين**﴾، قيل أول المؤمنين بأنه لايراك حي إلا مات ولايابس إلا تهدّد. فهذه للعجز الموجود في المخلوق لا لامتناع في ذات المرئي.

المنهاج جـ١ ص**٢٩٠**

تأمَّل قوله: وإنما لم يُرَ لِعجز أبصارنا عن رؤيته لا لأجل امتناع رؤيته هذا في الدنيا، ولذلك لو كشف الحجب عن وجهه الكريم لاحترقت المخلوقات ليس لأن ربنا ـ عز وجل ـ نار تحرق، ولكن هذا هو النور الإلهي العظيم الذي لاتقوم له المخلوقات لضعفها، وهو نور الجلال، والجمال، والكمال، والعظمة، وانظر إلى الجبل كيف اندك لتجلي أقل القليل من نور رب العزة، وخرَّ موسىٰ صعقًا؟ فسبحان الله مايعطي الله المؤمن من القوة ببصره في الآخرة حتى يقوىٰ على النظر إلى وجهه الكريم الذي تشرق له الظلمات، ويا سعادة من حظي بهذا.

* * *

إنكم إذاً مثلهم

سئل الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله. عن معنى قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**إنكم إذًا مثلهم**﴾. وقول النبي ـ ﷺ ـ في الحديث: «**من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله**».

الجواب: أن معنى الآية على ظاهرها وهو أن الرجل إذا سمع آيات الله يكفر بها، ويستهزأ بها، فجلس عند الكافرين المستهزئين من غير إكراه، ولا إنكار، ولا قيام عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، فهو كافر مثلهم، وإن لم يفعل فعلهم لأن ذلك يتضمن الرضىٰ بالكفر، والرضىٰ بالكفر كفر. وبهذه الآية ونحوها استدل العلماء على أن الراضي بالذنب كفاعله فإن ادَّعى أنه يكره ذلك بقلبه لم يقبل منه لأن الحكم على الظاهر، وهو قد أظهر الكفر، فيكون كافرًا، ولهذا لما وقعت الردة بعد موت النبي ـ ﷺ ـ وادَّعىٰ أناس أنهم كرهوا ذلك لم يقبل منهم الصحابة ذلك، بل جعلوهم كلهم مرتدين إلا من أنكر بلسانه وقلبه.

وكذلك قوله في الحديث: «**من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله**». على ظاهره وهو أن الذي يدَّعي الإسلام، ويكون مع المشركين في الاجتماع، والنصرة، والمنزل معهم بحيث يعده المشركون منهم، فهو كافر مثلهم، وإن ادَّعى الإسلام إلا إن كان يُظهر دينه، ولا يوالي المشركين، ولهذا لما ادَّعى بعض الناس الذين أقاموا بمكة بعد ماهاجر النبي ـ ﷺ ـ فادَّعوا الإسلام إلا أنهم أقاموا في مكة يعدهم المشركون منهم، وخرجوا معهم يوم بدر كارهين للخروج، فقتلوا فظن بعض الصحابة أنهم مسلمون، وقالوا: قتلنا إخواننا، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم**﴾. الآية. قال السدي وغيره من المفسرين: إنهم كانوا كفّار ولم يعذر الله تعالىٰ إلا المستضعفين.

الجامع الفريد ص ٣٧٦

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وقد رُفع إلى عمر بن عبدالعزيز أقوام يشربون الخمر فأمر بجلدهم الحد، فقيل: إن فيهم صائمًا، فقال: ابدؤوا بالصائم فاجلدوه، ألم يسمع إلى قوله ـ تعالى ـ: **﴿وقد نزَّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾**. وقوله تعالى: **﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرىٰ مع القوم الظالمين، وماعلى الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرىٰ لعلهم يتقون﴾**؟. فنهىٰ ـ سبحانه ـ عن القعود مع الظالمين، فكيف بمعاشرتهم، أم كيف بمخادنتهم؟

الفتاوى جـ٣٢ ص٢٥٤ .

* * *

لاحول ولاقوة إلا بالله

كلمة عظيمة ولها معنى عظيم.

قال شيخ الإسلام: فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلى حال. والقوة هي القدرة على ذلك التحول، فدلت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال ولاقدرة على ذلك إلا بالله، ومن النـاس من يفسِّر ذلك بمعنى خاص فيقول: لاحوْل من معصيته إلا بعصمته، ولاقوة على طاعته إلا بمعونته. والصواب الذي عليه الجمهور هو التفسير الأول وهو الذي يدل عليه اللفظ.

فإن الحول لايختص بالحول عن المعصية، وكذلك القوة لاتختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول.

الفتاوى جـ٥ ص٥٧٤

* * *

كلام في السلوك

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: من ضرورات السالك النظر إلى عيوب نفسه وآفاتها مابين وقت وآخر، فإن في ذلك نفع عظيم مع توفيق الله فالسالكين بالنسبة لهذه الحالة ثلاثة أقسام:

قسم لايعرفون نفوسهم وآفاتها لم يكشفوا خباياها، ولم ينقبوا عما في طواياها، فهؤلاء على خطر عظيم من الكبر والإعجاب.

والقسم الثاني: يعوقهم هذا النظر والفحص، ويوحشهم، ويزيدون فيه عن الحد فيوهن قواهم، ويجلب لهم ذلك الهم والغم، ويظنون أن هذا لابد منه حيث يغيب عنهم أن النفس لاتزال ظالمة جاهلة مع لوازم هذين فهم يحاولون قلع هذه الأصول وأنّى لهم ذلك؟

والقسم الثالث: إذا عرض لهم النظر إلى نفوسهم كان كالدواء يستعلمون منه قدر الكفاية، فلاهم معرضون عن البحث والتدقيق، ولاواقفون على هذه الأطلال الفانية المقفرة الموحشة، فهم إلى ربهم راجعون، وعلى رحمته لا على نفوسهم وأعمالهم يتكلون.

* * *

كلام في القدر

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وليس في القدر حجة لابن آدم ولاعذر، بل القدر يؤمَن به ولايُحتج به، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض، فإن القدر إن كان حجة وعذرًا لزم أن لايلام أحد، ولايعاقب أحد، ولايُقتص منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظُلم في نفسه، وماله، وعرضه، وحرمته أن لاينتصر من الظالم، ولايغضب عليه، ولايذمه، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لايمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعًا محرم شرعًا.

ولو كان القدر حجة وعذرًا لم يكن إبليس ملومًا، ولامعاقبًا، ولا فرعون، وقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم من الكفار ولاكان جهاد الكفّار جائزًا، ولاإقامة الحدود جائزاً، ولا قطع السارق، ولا جلد الزاني، ولارجمه، ولا قتل القاتل، ولاعقوبة معتد بوجه من الوجوه ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة من الأمم، ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم، فإنه لايستقيم عليه مصلحة أحد لافي دنياه ولا آخرته.

الفتاوى جـ٢ ص٣٢٣

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وفي الأثر: «إذا أراد الله نفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم، فإذا أنفذ قضاءه وقدره ردّ عليهم عقولهم ليعتبروا..

الفتاوى جـ٧ ص٦٧٥

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾. قال: حتى يتركه لايعقل.

فتنـة الدجـال

قال شيخ الإسلام: وفتنة الدجّال لاتختص بالموجودين في زمانه بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق، فمن أقرَّ بما يخالف الشريعة لِخارق فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان لكن هذا المعين فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها سواء أدركه أو لم يدركه كان معصومًا مما هو دون هذه الفتنة.

وذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الدجّال عند أهل وحدة الوجود مثل فرعون من كبار العارفين.

ثم قال: ولهذا كان بعض الناس يعجب من كون النبي ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ، قال: «إنه أعور». وكونه قال: «واعلموا أن أحدًا منكم لن يرىٰ به حتى يموت». وابن الخطيب أنكر أن يكون النبي ـ ﷺ ـ قال هذا لأن ظهور دلائل الحدوث والنقص على الدجّال أبين من أن يُستدل عليه بأنه أعور، فلما رأينا حقيقة قول هؤلاء الاتحادية، وتدَّبرنا ماوقعت فيه النصارىٰ والحلولية ظهر سبب دلالة النبي ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ لأمته بهذه العلامة، فإنه بُعث رحمة للعالمين. فإذا كان كثير من الخلق يُجَوِّز ظهور الرب في البشر أو يقول: إنه هو البشر كان الاستدلال على ذلك بالعور دليلاً على انتفاء الإلهية عنه.

الفتاوىٰ جـ٢ ص٤٧٦

* * *

تصوّر في الذهن لاحقيقة له في الخارج

قال شيخ الإسلام:

وقال هود: ﴿اعبدوا الله مالكم من إلـه غيره إن أنتم إلا مفترون﴾. وإذا كانت إلـهية ماسوىٰ الله أمرًا مختلقًا يوجد في الذهن واللسان لاوجود له في الأعيان، وهو من باب الكذب، والاعتقاد، الباطل الذي ليس بمطابق، وماعند عابديها من الحب، والخوف، والرجاء لها تابع لذلك الاعتقاد الباطل، كمن اعتقد في شخص أنه صادق، فصدقه فيما يقول، وبنىٰ على أخباره أعمالاً كثيرة، فلما تبيَّن كذبه ظهر فساد تلك الأعمال كاتباع مسيلمة والأسود، وغيرهما من أصحاب الزوايا والترّهات، ومايشرعونه مما لم يأذن به الله بخلاف الصادق والصدق.

الفتاوى جـ١٦ت ص٥٧٦

فرْق بين وجود الشيء في الذهن واللسان وبين وجوده في الأعيان، ولذلك قامت نظريات وعلوم صارت عند كثير من الناس في هذا الزمان من المسلمات مع أنها من النوع الأول يعني خيال لاحقيقة له.

ولمَّا كان الخيال بهذه المثابة ذمّ الله المختال لأنه يرىٰ نفسه على غير ماهي عليه، ويظن هذا حقيقة وهو خيال، فيحصل له من الإعجاب والكبر ماالله به عليم.

ولذلك يرحم الله من عرف قدر نفسه لأنه لايرفعها فوق منزلتها، وهذا مُقر بظلمه وجهله مهما ارتفعت درجته، ومن كلام قس بن ساعدة (أفضل الحكمة معرفة المرء بقدره).

ويقال: من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه، فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لايعرفه، ولن ينال محاسن غيره.

وقال شيخ الإسلام: فنفي تألههم لها، وعبادتهم إياها، وتعظيمها، وحبها، ودعائها واعتقادها آلهة، والخبر عنهابأنها آلهة موجود كما كان اعتقاد الكذابين موجودًا.

وأما نفسي اتصافها بالإلهية فمفقود كاتصاف مسيلمة بالنبوة.

الفتاوىٰ جـ١٦ ص٥٧٧.

وقال ـ رحمه الله ـ: وأما قوله: ﴿**ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم**﴾. فليس المراد كما ذكروه أنكم تعبدون الأوثان المسماة، فإن هذا هم معترفون به، والرب ـ تعالىٰ ـ نفىٰ ماكانوا يعتقدونه، وأثبت ضده، ولكن المراد أنهم سموها آلهة، واعتقدوا ثبوت الإلهية فيها، وليس فيها شيء من الإلهية، فإذا عبدوها معتقدين إلهيتها مُسمين لها آلهة لم يكونوا قد عبدوا إلا أسماء ابتدعوها هم ماأنزل الله بها من سلطان لأن الله لم يأمر بعبادة هذه، ولاجعلها آلهة كما قال: ﴿**وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمـٰن آلهة يعبدون**﴾ فتكون عبادتهم لما تصوروه في أنفسهم من معنى الإلهية، وعبَّروا عنه بألسنتهم، وذلك أمر موجود في أذهانهم وألسنتهم لا حقيقة له في الخارج فما عبدوا إلا هذه الأسماء التي تصوروها في أذهانهم، وعبَّروا عن معانيها بألسنتهم وهم لم يقصدوا عبادة الصنم إلاّ لكونه إلـٰهًا عندهم، وإلـٰهيته هي في أنفسهم لافي الخارج فما عبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد الذي عبر عنه. ولهذا قال في الآية الأخرىٰ: ﴿**وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لايعلم في الأرض أم بظاهر من القول**﴾.

يقول: سموهم بالأسماء التي يستحقونها هل هي خالقة رازقة محيية مميتة أم هي مخلوقة لاتملك ضرًا ولانفعًا، فإذا سمّوها فوصفوها بما تستحقه من الصفات تبينَّ ضلالهم قال ـ تعالى ـ: ﴿**أم تنبئونه بما لايعلم في الأرض**﴾.

ومالا يعلم أنه موجود فهو باطل لاحقيقة له.

ولو كان موجودًا لعلمه موجودًا. ﴿**أم بظاهر من القول**﴾. أم بقول ظاهر باللسان لاحقيقة له في القلب بل هو كذب وبهتان. الفتاوىٰ جـ٦ ص١٩٤

انظر قوله: فما عبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد يعني أن اعتقاد إلـهيتها في أذهانهم فقط ليس في الخارج يوضحه قوله: فإذا سمّوها فوصفوها بما تستحقه من الصفات تبيّن ضلالهم.

والصفات التي تستحقها آلهتهم مثل أنها مخلوقة، وأنها أحجار، وأشجار، وقبور، ونحو ذلك، وهذه كلها لاتستحق الإلهية لعدم اتصافها بذلك.

وأما الإلـه الحق ـ سبحانه ـ إذا وصفوه فإنه الخالق، الرازق، الحي القيوم، المدبر، مالك الضر والنفع، إلى غير ذلك من صفات جلاله، وعظمته الموجبة لتفرده بالإلهية، وسلبها عمّن سواه.

وقال الشيخ ـ رحمه الله ـ: ﴿**وجعلوا لله شركاء قل سمّوهم**﴾. ذكر الأقوال ثم قال: فتأمّل ماقبل الآية ومابعدها يطلعك على حقيقة المعنى، فإنه ـ سبحانه ـ يقول: ﴿**أفمَن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾. وهذا استفهام تقرير يتضمن إقامة الحجة عليهم، ونفي كل معبود مع الله الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت بعلمه، وقدرته، وجزائه في الدنيا والآخرة، فهو رقيب عليها، حافظ لأعمالها في الدنيا والآخرة مُجازٍ لها بما كسبت من خير وشر، فإذا جعلتم أولئك شركاء فسمّوهم إذًا بالأسماء التي يسمى بها القائم على كل نفس بما كسبت، فإنه ـ سبحانه ـ يسمى بالحي القيوم، المحيي المميت، السميع البصير، الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، ووجود كل شيء به فهل تستحق آلهتكم اسمًا من تلك الأسماء، فإن كانت آلهة حقًا فسمّوها بأسمائها الصادقة عليها، كالحجارة، وغيرها من مسمى الجمادات، وأسماء الحيوان التي عبدوها من دون الله، كالبقر وغيرها، وبأسماء الشّياطين الذين أشركوهم مع الله ـ جل وعلا ـ وبأسماء الكواكب المسخّرات تحت أوامر الربّ، والأسماء الشاملة لجميعها أسماء المخلوقات المحتاجات المدبّرات المقهورات، وكذلك بنو آدم عبادة بعضهم بعضًا، فهذه أسماؤها الحق وهي تبطل إلـهيتها لأن الأسماء التي من لوازم الإلـهية مستحيلة عليها، فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان إلـهيتها، وامتناع

كونها شركاء الله ـ عز وجل ـ.

الفتاوى جـ١٥ ص١٩٦

وقال ـ رحمه الله ـ: لفظ الإله يراد به المستحق للإلهية، ويراد به مااتخذه الناس إلـهًا وإن لم يكن إلـهًا في نفس الأمر، بل هي أسماء سموها هم وآباؤهم، فتلك ليست في نفسها آلهة، وإنما هي آلهة في أنفس العابدين. فإلـهيتها أمرٌ قدَّره المشركون، وجعلوه في أنفسهم من غير أن يكون مطابقًا للخارج، كالذي يجعل من ليسَ بعالم عالمًا، ومن ليس بحي حيًا، ومن ليس بصادق ولاعدل صادقًا وعدلاً، فيقال: هذا عندك صادق، وعادل، وعالم، وتلك اعتقادات غير مطابقة، وأقوال كاذبة غير لائقة، ولهذا يجعل ـ سبحانه ـ ذلك من باب الافتراء والكذب كما قال أصحاب الكهف: **﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن فمن أظلم ممن افترىٰ على الله كذبًا﴾**.

وقال الخليل: **﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾**. وقال: **﴿ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾**. أي: أي شيء يتبع الذين يشركون؟ وإنما يتبعون الظن والخرص وهو الحزر. هذا هو الصواب وأن «ما» استفهامية. انتهىٰ.

فقد ظهر الفرق بين الخيال والحقيقة، وتأمَّل كيف قام سوق الشرك على الخيال، فلا تستغرب أن تقوم نظريات تسمىٰ علمية في هذا الزمان وتروج، وهي موجودة في الذهن لاوجود لها في الخارج، فقد رأينا من هذا العجائب، وقد **قال شيخ الإسلام** ـ رحمه الله ـ: وهذا الغلط يقع كثيراً في السالكين يقع لهم أشياء في بواطنهم، فيظنونها في الخارج، فهم في ذلك بمنزلة الغالطين من نظار المتفلسفة ونحوهم حيث يتصورون أشياء بعقولهم، كالكليات، والمجردات، ونحو ذلك، فيظنونها ثابتة في الخارج، وإنما هي في نفوسهم، ولهذا يقول أبو القاسم السهيلي: نعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي.

الفتاوى جـ٥ ص٤٩١

لين الكلام وإغلاظه في المخاطبة

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: ماذكرتم من لين الكلام والمخاطبة بالتي هي أحسن فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالاً لهذا، لكن كل شيء في موْضعه حسن، وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة، فنحن مأمورون بمقابلته لم نكن مأمورين أن نخطابه بالتي هي أحسن. ومن المعلوم أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿**ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾. فمن كان مؤمنًا فإنه الأعلى بنص القرآن، وقال: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾. وقال: ﴿**إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين. كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي**﴾. والله محقق وعده لمن هو كذلك كائنًا من كان. . إلى آخر كلامه.

الفتاوى جـ٣ ص٢٣٢

قال شيخ الإسلام: والمناظرة والمحاجة لاتنفع إلا مع العدل والإنصاف.

وقال: ولما كانت المحاجة لاتنفع إلا مع العدل قال تعالى: ﴿**ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم**﴾. فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن.

قال سفيان الثوري: إذا أثنىٰ على الرجل جيرانه أجمعون فهو رجل سوء. قالوا له: كيف ذلك؟ قال: يراهم يعملون بالمعاصي فلا يُغيِّر عليهم، ويلقاهم بوجه طلق. انتهى. .

هذا مما يبين أن الدين ليس بالرأي لأن رأي غالب الناس أن ثناء الجيران كلهم على جارهم خصلة محموده ومطلوبه كذلك رأي غالب الناس أن العصاة يلاقون بوجه طلق، فتأمَّل كلام السلف، ولاتغتر بالخلوف.

كيف لو رأىٰ سفيان الابتسامة اللطيفة والطرفة لمن يعمل بالمعاصي.

قال ابن حزم: النصيحة مرتان: فالأولى فرض وديانة، والثانية تنبيه

وتذكير، وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع وليس وراء ذلك إلا التركل واللطام.

الأخلاق والسير لابن حزم ص٤٤

هذا بما يبين غرور من يعايش العصاة، ويستمر معهم بحجة دعوتهم. وانظر فصل «**إنكم إذًا مثلهم**».

قال شيخ الإسلام: وهكذا السنة في مقارنة الظالمين، والزناة، وأهل البدع، والفجور، وسائر المعاصي لاينبغي لأحد أن يقارنهم، ولايخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله - عز وجل - وأقل ذلك أن يكون منكرًا لظلمهم ماقتاً لهم شانئًا ماهم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

الفتاوى جـ١٥ ص٣٢٤

* * *

كلام في الرؤيـا

هذه مقدمة نافعة إن شاء الله في تعبير الأحلام وتأويلها، وأن ذلك ليس كما يظن كثير من الناس حيث يرون الرؤيا أو يراها غيرهم، فيأخذونها على ظاهرها دون نظر أو معرفة بما تكلَّم به علماء التأويل في التعبير، ثم على هذا المقتضىٰ يعملون أعمالاً، ويعتقدون اعتقادات، ويوالون، ويعادون، وقد يكون الأمر خلاف ماذهبوا إليه، أو لايكون لذلك حقيقة أصلاً.

ولولا ماأحسسته ولمسته في واقعنا ماكتبت في ذلك شيء، وهذا الذي أكتبه هو ماذكره العلماء في مقدمات هذا العلم والمدخل إليه لأنه كغيره من العلوم والفنون له أصول وقواعد ينبني عليها.

ولذلك منَّ الله على يوسف عليه السلام بعلم الرؤيا، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾. يعني علم الرؤيا.

وكم رؤيا رُؤيت ظنها الناس خيراً وهي شر، وكم رؤيا رُؤيت ظنوها شرًا وهي خير وسأذكر فيها بعد إن شاء الله أمثلة تبين ذلك. وقد قال بعض من كتب في هذا العلم:

وحيث كان علم التعبير من الدقة بمكان ومن الرفعة بحيث لايدركه كل إنسان سوى من سما بعقله إلى سماء التفكير والتدبير، ورزق من الفطنة والذكاء بحيث يُدرك ويرىٰ بعين الناقد البصير، فبينما يرىٰ الرائي رؤيا تضطرب لها حواسه، وتهتز منها فرائصه، وتحبس أنفاسه، فإذا بها خير له وكبت لأعدائه، وبينما يرىٰ رؤيا يشتد فرحه بها، ويتيه بها عجبًا إذا بها من شواهد خذلانه وحرمانه ولايدرك هذا أو ذاك إلا بواسطة هذا الفن النفيس.

يتبين من ذلك أن معنىٰ الرؤيا وتأويلها لايكون في كل حال على حسب مايبدو من ظاهرها من الخير والشر، وسوف أذكر هنا بعض الأمثلة لذلك.

حُكيَ عن الأصمعي قال: اشترىٰ رجل أرضًا فرأىٰ أن ابن أخيه يمشي فيها، فلا يطأ إلا على رأس حية، فقال: إن صدقت رؤياه لم يغرس فيها

شيء إلا حيي.

ظاهر هذه الرؤيا شر، ولو وقعت لواحد منا لقلنا: هذه الأرض مسكونة يعني فيها جن أو قلنا: المال الذي اشتريت به حرام، أو نحو ذلك مما يناسب عقولنا وفهومنا. وتأمَّل كيف عبرها الأصمعي بحياة مايغرس فيها بدلالة لفظ الحية على الحياة، ولم يعبرها بالأصل، وهو أن الحية عدو. فتعبير الرؤيا يكون بالأصل وباللفظ وغير ذلك.

وحُكي أن رجلاً من القراء رأىٰ في منامه كأنه يقطع ورقة من المصحف، فيضعها على النار، فيستكن لهبها، فرفعها إلى بعض المعبرين، فقال: ستكون فتنة من جهة السلطان، وتسكن بقراءتك القرآن.

فانظر كيف أن ظاهر هذه الرؤيا مخيف ومُوحش، وتعبيرها ضد ذلك.

لو خُضنا في هذه الرؤيا مع الخائضين لقلنا: نعوذ بالله فلان رأىٰ أنه يقطع أوراق المصحف، ويحرقها بالنار، ثم بنينا على هذا اعتقاد سوء في الشخص، وتبع ذلك آثاره من المعاداة، والتحذير، ونفرة القلوب، واشمئزازها منه، ولايخفىٰ مافي هذا من الظلم، والجور، والعدوان الذي أصله الجهل بأحكام الرؤيا وتعبيرها.

وقصة الرجل الذي أتى ابن سيرين ـ رحمه الله ـ فقال: رأيت كأني أؤذن، والآخر الذي رأىٰ نفس الرؤيا، فعبر رؤيا أحدهما بأنه يحج، والآخر يسرق مشهورة لكننا لانعتبر بمثل ذلك.

ومن جنس ماتقدم ماحُكي أن هـٰرون الرشيد رأىٰ ملك الموت ـ عليه السلام ـ قد مَثُلَ له، فقال له: ياملك الموت كم بقي من عمري، فأشار إليه بخمس أصابع كفه مبسوطة، فقام مذعورًا باكيًا من رؤياه، وقصَّها على حجام موصوف بالتعبير، فقال: ياأمير المؤمنين قد أخبرك أن خمسة أشياء علمها عند الله تجمعها هذه الآية: ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾. الآية، فضحك هـٰرون، وفرح بذلك.

فانظر كيف ظنَّ هـٰرون أنه لم يبق من عمره إلا خمسة أيام، فإن طالت

فخمسة أشهر، وإن طالت أكثر فخمس سنين، وهو لايريد ذلك يريد أن يتمتع في ملكه. والمراد أن الأمر ليس على مايبدو في الظاهر.

ورأى رجل الحسن البصري - رحمه الله - كأنه لابس صوف، وفي وسطه كُسْتِيج[1]، وفي رجليه قيد، وعليه طيلسان[2] عسلي، وهو قائم على مزبلة، وفي يده طنبور يضرب به، وهو مستند إلى الكعبة، فقص رؤياه على ابن سيرين.

قبل أن أذكر تعبير ابن سيرين لهذه الرؤيا تأمَّل ماجتمع فيها من المنكرات العظيمة هذا كله وهو مستند إلى الكعبة.

فقص الرجل رؤياه على ابن سيرين، فقال: أما درعه الصوف فزهده، وأما كستيجه فقوَّته في دين الله، وأما عسله فحبه للقرآن وتفسيره للناس، وأما قيده فثباته في ورعه، وأما قيامه على المزبلة فدنياه جعلها الله تحت قدميه، وأما ضرب طنبوره فنشره حكمته بين الناس، وأما استناده إلى الكعبة فالتجاؤه إلى الله - عز وجل -.

ومن جنس ماتقدَّم ذكروا أن من رأى أنه يؤذن فوق سطح الكعبة، فإنه مبتدع، أو يسب أصحاب النبي ﷺ.

لو قيل لنا إن فلان رأى هذه الرؤيا أو رؤيت له لقلنا: نسأل الله الكريم من فضله استحسانًا لها، وهي كما ترى.

وذكر المعبرون أن من أدخل يده تحت إبطه وأخرجها ولها نار، فإنه إن كان طالب علم نال في علمه سلطانًا وفصاحة، وإن كان واليًا نال سلطنة وقوة وغلبة.

وذكروا أن من بال في محراب فإنه يولد له ولد عالم.

---

(١) الكُستيج بالضم خيط غليظ يشده الذمي فوق ثيابه دون الزنار.

(٢) الطيلسان من أكسية العجم.

ويذكرون أن من رأىٰ أنه يصلي نحو الكعبة فإن ذلك يدل على استقامته في دينـه، وأن من صلىٰ إلى غير ذلـك دلَّ على رداءة مذهبـه وجـرأته على المعاصي، ومع هذا يذكرون أن من رأىٰ أنه يصلي إلى غير القبلة إلا أن عليه ثيابًا بيضًا وهو يقرأ القرآن كما يجب رُزِق الحج لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فأينما تولوا فثم وجـه الله**﴾. وهكـذا قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في إعلام الموقعين: فالـرؤيا أمثـال مضروبة يضربها الملك الذي قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بما ضرب له من المثل على نظيره، ويَعْبر منه إلى شبهة، ولهذا سمي تأويلها تعبيرًا وهو تفعيل من العبور.

إذا علم ماتقدَّم تبينَّ قولهم: بعض الرؤيا يكون ظاهرها مطابقًا باطنها، وبعضها لايُفهم تعبيرها من ظاهرها.

* * *

منوعـات

قال العلماء رحمهم الله :

الموالاة : مثل لين الكلام وإظهار شيء من البشاشة أوليائه الدواة وماأشبه ذلك من الأمور اليسيرة مع إظهار البراء منهم ومن دينهم وعلمهم بذلك منه، فهذا مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب وهو على خطر.

وأما التولي : فهو إكرامهم، والثناء عليهم، والنصرة، والمعاونة لهم على المسلمين، والمعاشرة، وعدم البراءة منهم ظاهرًا، فهذا ردة من فاعله يجب أن تجرئ عليه أحكام المرتدين كما يدل على ذلك الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة المقتدئ بهم.

نصيحة المسلمين ١١٢

قال شيـخ الإسـلام: والمـرتـد من أشرك بالله ـ تعالى ـ أو كان مبغضًا للرسول ـ ﷺ ـ ولما جاء به، أو ترك إنكار منكر بقلبه، أو توهم أن أحدًا من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم قاتل مع الكفّار، أو أجاز ذلك، أو أنكر مجمعًا عليه إجماعًا قطعيًا.

الفتاوئ الكبرئ جـ٤ ص٦٠٦ .

يقال : إذا عظم المطلوب قلّ المساعد، وكثر المعارض والمعاند، فلا يثنيك شنآن من صدّ عن السبيل وصدف، ولاتنقطع مع من عجز عن مواصلة السرئ ووقف، فإنـما هي مهجة واحدة فانظر فيما تجعل تلفها. وعلى من تحتسب خلفها.

قال عبدالله بن المبارك :

ألا رُبّ ذي طمرين في منزلٍ غدًا   زرابـيّهُ مبـثـوثـة ونـمارقـهْ
قد اطّـردت أنهاره حولَ قصره   وأشرق والـتـفّـتْ عليه حدائقـه

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كان أبو بكر يخطبنا، فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقذِّر نفسه، يقول: خرج من مجرىٰ البول مرتين.

هذا دواء للمتكبرين، فإن لم يشف داءهم، فهنا دواء آخر. قال الحسن: عجبًا لابن آدم يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات والأرض.

والكبر دليل نقص العقل. قال محمد بن الحسين بن علي من ولد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: مادخل قلب رجل من شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك.

انظر كيف يعامل بنقيض قصده، فمتى وُجد شيء من الكبر نقص من العقل بقدره.

ونظر طاووس إلى عمر بن عبدالعزيز وهو يختال في مشيته وذلك قبل أن يُستخلف، فطعن طاوس في جنبه بأصبعه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرء، فقال كالمعتذر إليه: ياعم لقد ضُرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها.

قال مالك بن دينار: ركب سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ ذات يوم البساط في مئتي ألف من الإنس، ومئتي ألف من الجن، فرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء، ثم خُفض حتى مسّت قدمه ماء البحر، فسمعوا صوتًا «لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رُفع».

قال إبراهيم بن أدهم لشقيق البلخي: ياشقيق لم ينبل عندنا من نبل بالحج ولا بالجهاد، وإنما نبل عندنا من نبل من كان يعقل مايدخل جوفه ـ يعني الرغيفين من حله.

هذا الأمر قد طُويَ بساطه منذ زمان بعيد، ولو اقترب منه أحد اليوم لقيل عنه يُحَرِّم الحلال، ويحرم الطيبات من الرزق.

حُكى أن جماعة من النصارىٰ تحدثوا فيما بينهم، فقال قائل منهم: مأأقل

عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعي الغنم، فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة؟. فقال له آخر من بينهم: أما هم فوالله أعقل منّا، فإن الله بحكمته يسترعي النبي الحيوان البهيم، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق حكمة من الله وتدريجًا لعبده، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكي، فقلنا: هذا إلـٰهنا الذي خلق السموات والأرض، فأمسك القوم عنه.

مفتاح السعادة ص١١٠

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة.

الفتاوى جـ٢٨ ص٣١

قال شيخ الإسلام: المشابهة في الأمور الظاهرة تورث تناسبًا وتشابهًا في الأخلاق والأعمال، ولهذا نهينا عن مشابهة الكفّار، ومشابهة الأعاجم، ومشابهة الأعراب، ونهى كل من الرجال والنساء عن مشابهة الصنف الآخر كما في الحديث المرفوع: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» و «**ليس منا من تشبه بغيرنا**». والرجل المتشبه بالنساء يكتسب من أخلاقهنَّ بحسب تشبهه حتى يُفضي الأمر به إلى التخنث المحض، والتمكين من نفسه كأنه امرأة. ولما كان الغناء مقدمة ذلك، وكان من عمل النساء كانوا يسمون الرجال المغنين مخانيث. والمرأة المتشبهة بالرجال تكتسب من أخلاقهم حتى يصير فيها من التبرج والبروز ومشاركة الرجال ماقد يُفضي ببعضهنَّ إلى أن تُظهر بدنها كما يظهره الرجل، وتطلب أن تعلو على الرجال كما تعلو الرجال على النساء، وتفعل من الأفعال ماينافي الحياء، والخفر المشروع للنساء، وهذا القدر قد يحصل بمجرد المشابهة.

الفتاوى جـ٢٢ ص١٥٤

وقال الشيخ أيضًا عن الكفّار: فإذًا المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا حتى ماهم عليه من إتقان أمور دنياهم قد يكون مُضرًا بآخرتنا

أو بما هو أهم منه من أمور دنيانا، فالمخالفة فيه صلاح لنا.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: فمن رأىٰ قومًا يستحقون العذاب في ظنه وقد غفر الله لهم، ورحمهم، وكره هو ذلك، فهذا إما أن يكون عن إرادة تخالف حكم الله، وإما عن ظن يخالف علم الله، والله عليم حكيم، وإذا علمت أنه عليم وأنه حكيم لم يبق لكراهية مافعله وجه. وهذا يكون فيما أمر به، وفيما خلقه، ولم يأمرنا أن نكرهه، ونغضب عليه.

فأمّا مأمرنا بكراهته من الموجودات: كالكفر، والفسوق، والعصيان فعلينا أن نطيعه في أمره، وذكر كلامًا، ثم قال: فعلينا أن نحب مايحب، ونرضىٰ مايرضىٰ، ونأمر بما يأمر، وننهىٰ، عما ينهىٰ فإذا كان «يحب التوابين ويحب المتطهرين» فعلينا أن نحبهم، ولانسأله مراداتنا المخالفة لمحابة.

الفتاوى جـ١٠ ص٨٧

وقال ـ رحمه الله ـ: **فصل في قاعدة شريفة.**

وهي أن جميع مايحتج به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدل على الحق لاتدل على قول المبطل، وهذا ظاهر يعرفه كل أحد، فإن الدليل الصحيح لايدل إلا على حق لاعلى باطل.

يبقىٰ الكلام في أعيان الأدلة، وبيان انتفاء دلالتها على الباطل، ودلالتها على الحق هو تفصيل هذا الإجمال.

والمقصود هنا شيء آخر وهو: أن نفس الدليل الذي يحتج به المبطل هو بعينه إذا أُعطي حقه وتميَّز مافيه من حق وباطل وبُيِّن مايدل عليه تبين أنه يدل على فساد قول المبطل المحتج به في نفس مااحتج به عليه. وهذا عجيب قد تأملته فيما شاء الله من الأدلة السمعية فوجدته كذلك.

الفتاوىٰ جـ٦ ص٢٨٨

يؤتي الحكمة من يشاء.

قال الشيخ عبدالله بن عبداللطيف ـ رحمه الله ـ: ومن أراد الاحتياط لنفسه في أمر العبادات بأمر لم يحتط به الرسول، ولم يحكم به فلازم اعتقاده،

وفعله، ومقاله نقص البلاغ من المشرع، وهذه مصيبة عظمىٰ، وداهية كبرىٰ.

الدرر السنية جـ**٣** ص**٣٦١**

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ بعد كلام سبق: فأول ماحدث الصلاة عند القبور والبناء عليها من غير شرك، ثم بعد ذلك بقرون وقع الشرك، وأول ماجرىٰ من هذا أن بني أمية لمَّا بنوا مسجد الرسول ـ ﷺ ـ وسّعوه واشتروا بيوتًا حوله، ولم يمكنهم إدخال بيت النبي ـ ﷺ ـ الذي فيه قبره وقبر صاحبيه، ولكن أدخلوا البيت في المسجد، لأجل توسيع المسجد ولم يقصدوا تعظيم الحجرة بذلك، لكن قصدوا تعظيم المسجد ومع هذا أنكره علماء المدينة حتى قتل خبيب بن عبدالله بن الزبير بسبب إنكاره ذلك فانظر إلى سد العلماء الذرائع.

مؤلفات الشيخ محمد، القسم الثالث ص٧٠
مختصر سيرة الرسول، والفتاوىٰ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: جزْم العلم غير جزْم الهوىٰ، فالجازم بغير علم يجد من نفسه أنه غير عالم بما جزم به، والجازم بعلم يجد من نفسه أنه عالم إذْ كوْن الإنسان عالمًا وغير عالم مثل مايعلم من نفسه كونه محبًا، ومبغضًا، ومريدًا، وكارهًا، ومسرورًا، ومحزونًا، ومنعمًا، ومعذبًا، وغير ذلك ومن شك في كونه يعلم مع كونه يعلم فهو بمنزلة من جزم بأنه علم وهو لايعلم، وذلك نظير من شك في كونه سمع ورأىٰ، أو جزم بأنه سمع ورأى ما لم يسمعه ويراه . . .

وقال أيضًا: وإلا فمن حاسب نفسه على ما يُجزم به وجد أكثر الناس الذين يجزمون بما لا يُجزم به إنما جزمهم لنوع من الهوىٰ، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾** وقال: **﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله﴾**.

الفتاوى جـ **٤** ص **٢٩**

وقال في الاعتراض والقدح:

ومن المعلوم أن الاعتراض والقدح ليس بعلم، ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي، وإنما العلم في جواب السؤال.

الفتاوى جـ ٤ ص ٢٧

قال العلماء: الاختلاف ينشأ تارة من سوء الفهم ونقص العلم، وتارة من سوء القصد.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر وقد جعلهما الله سبحانه له كالهواء للطير، ولا يلزم من حجبها (يعني الأرض) للأجسام الكثيفة أن تتولّج حجبها للأرواح اللطيفة (الملائكة) وهل هذا إلا من أفسد القياس وبهذا وأمثاله كذِّبت الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ.

الروح ص ٧٢

قال تقي الدين بن دقيق العيد: إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم، وضعف الشريعة في سنة ستمائة وست وخمسين أخذ التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وقد قال ـ تعالى ـ: «**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**».

أحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه جاء سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فأنزعج الخليفة من ذلك، وفزع فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا مكتوب عليه: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم».

يقال: نصاب زكاة الواعظ الاتعاظ فكيف يزكي من لا نصاب له..

أقول: نحن نزكي ما لا يبلغ نصاب الزكاة، وكل أحوالنا عجب، ومنها ذمنا للزهد والورع لأننا زهدنا في الزهد، وتورعنا عن الورع.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *